اقرأ

الدكتور احمد فؤاد الأهواني

النّسْيان

النّسيان

الدكتور احمد فؤاد الأهوانى

النّسْيان

١٣٣
اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٣٣ - أول يناير ١٩٥٤



فوائد الذكر وغوائل النسيان

أدام الله عليك نعمة الثقة بالنفس وعمر قلبك بالإيمان ، وأيدك بفضيلة الذكر وأبعد عنك آفة النسيان .

وقد رجوت منك – أيها الأخ الصديق – أن تذكر ما طلبته منك ، فزعمت أنك لا تنسى !

اللهم وجل منْ لا يسهو . سبحانه وتعالى فهو القائل فى محكم التنزيل « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » . فكيف تذهب فى ثقتك بنفسك واعتزازك بها واطمئنانك إليها واعتمادك عليها إلى دعوى العصمة من النسيان .

حقاً إن الثقة بالنفس فضيلة فى كل شخص يريد أن يعيش فى هذه الحياة سيداً لا مسوداً ، وحاكماً لا محكوماً ، وعزيزاً لا ذليلا . وهى ألزم الفضائل لمصر فى عهدها الجديد . وهى أول شرط من شروط التذكر ، لأن الذاكرة ليست شيئاً آخر إلا « النفس » ، فالثقة بها حياة الذاكرة ، أو حياتها .

ولا تحسبن أنى ألعب بالألفاظ حين أجعل النفس مرادفة

للذاكرة ؛ فأنت تعرف ولا ريب مذهب برجسون ، وتعرف كتابه المشهور « المادة والذاكرة » الذى يقابل فيه بين الجسم والنفس ، بين المخ والشعور ، إلى أن يقول فى ختام كتابه : « بالذاكرة نصبح حقاً فى ميدان النفس » .

وسأزيدك بهذه النظرية بياناً خلال فصول هذا الكتاب .

وإنك لعلى حق حين عوّلت على الذاكرة وأودعتها ثقتك ، لأنّ فوائد الذاكرة فى الحياة النفسية والاجتماعية من الخطر بحيث تبطل كل حياة تخلو من الذاكرة ، وترتقى الأحياء مع سعتها وشمولها وحسن استخدامها .

ولعلك تعجب من نسبة الذاكرة لسائر الكائنات الحية كالنبات والحيوان . ولكن عجبك يزول بعد النظر إلى أصناف الذاكرة ، أو إلى قسميها المشهورين : الآلية والشعورية .

يقسم برتراند رسل فى كتابه « تحليل العقل » الذاكرة قسمين : ذاكرة العادة وذاكرة المعرفة Habit-memory, Knowledge-memory . وإلى مثل ذلك يذهب برجسون أيضاً مع قليل من الاختلاف . وهناك أقسام أخرى لا محل لذكرها الآن.

والعادة ميل إلى أداء عمل من الأعمال نتيجة التكرار ، حتى يصبح هذا العمل « آلياً » كالمشى والكتابة وتناول الطعام وما إلى ذلك .

ويتجه معظم علماء النفس المحدثين إلى إخراج هذه الأعمال الآلية من ميدان الذاكرة التى يقصرونها على الأمور التى ندركها مع شعور ومعرفة .

ومع ذلك فنحن نلاحظ فى حياتنا اليومية اختلال بعض الأعمال العادية التى نكررها آلياً ، ولا يمكن أن نعلل هذا الاختلال إلا بالنسيان . مثال ذلك الذى يصلى العصر وهو يعلم أنه أربع ركعات ، يكررها اعتياداً ، وقد ينسى فيزيد ركعة أو ينقص ركعة من غير أن يدرى ، إذا كان مشغول البال . ورأيت زميلا فى أيام التلمذة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد لبس وهو ذاهب إلى المدرسة « لبدة » فوق رأسه ، بدلا من الطربوش ، فلما نبهته إلى ذلك عاد إلى منزله مسرعاً وغيّر لباس رأسه . ذلك أنه كان معتاداً أن يصلى الصبح مغطياً رأسه بهذه اللبدة ، فنسيها على رأسه مع العجلة .

ويروى عن أديسون — فيما أذكر — أنه أخذ يحل مسألة رياضية عويصة اشتغل بها عقله وهو فى الشارع ، فأخرج من جيبه قطعة من الطباشير ، ورأى أمامه عربة أجرة ظهرها أسود كالسبورة ، فشرع يكتب عليها ، حتى إذا سارت العربة رأى الناس رجلا يجري وراءها وهو ممسك بالطباشير ولا يزال يكتب .

من أجل ذلك عدّ بعض علماء النفس الأعمال العادية من جملة الذاكرة ، وفسروا اختلالها بالنسيان ولو أنه صادر عن اللاشعور .

ولنرجع إلى بيان فوائد الذاكرة بوجه عام ، دون اقتصار على ذاكرة المعرفة والشعور ، فقد تفسر لنا هذه النظرة الشاملة حقيقة الذكر وطبيعة النسيان .

فالذاكرة تظهر كما قلنا مع أدنى الكائنات الحية درجة ، لأن الكائنات النباتية والحيوانية الأولية تحتفظ بآثار التغييرات التى تؤثر فيها . فهناك زهور تتحرك مع الضوء فى النهار ، فتظل حركتها بعض الوقت حتى بعد حلول الظلام . وتظهر بعض الحيوانات المائية على رمال شاطىء البحر مع الجزْر وتعود إلى الماء مع المد ، فإذا وضعت فى إناء زجاجى استمرت تفعل الحركة نفسها الدورية عدة أيام . ودرس الدكتور مارتن نوعاً من الديدان البحرية يعيش على شاطىء المانش ، يسمى كونفولوتا Convoluta ، وأثبت وجود هذه الدورات الحيوية واستمرارها حتى بعد انعدام المؤثر الذى يحدثها .

وتتبع العلماء نشأة الذاكرة فى أنواع الحيوان كالأسماك والزواحف والطيور والثدييات المختلفة ، وانتهوا إلى هذا القانون الخاص بالذاكرة وهو : يزيد النسيان مع الجذر التربيعى

للزمن الذى ينقضى بعد الحفظ والاكتساب .

وهذا القانون ، قانون النسيان الذى ينطبق على الحيوانات ، ينطبق كذلك على الإنسان ، مما يدل على أن الطبيعة تجرى من حيث الحفظ والاكتساب ومن حيث النسيان تبعاً لقانون واحد .

فالعادات التى تكتسب مع التكرار تسهل العمل وتجعله أدق وأسرع وأتقن .

ولا نود الإطناب فى بيان فوائد الذاكرة الآلية ، ولنتحدث عن مزايا ذاكرة المعرفة التى تمتاز بالشعور وبإدراك الزمان الماضى .

فالمدركات الحسية تحتاج فى معرفتها إلى التجارب السابقة . انظر إلى الأشياء التى تحيطك ، والتى يخيل إليك أنها مألوفة لا تحتاج إلى ذكريات ماضية ، تجد أنها لولا معرفتك السابقة بها ما استطعت الآن إدراكها . هذا كتاب ، وهذا قلم ، وهذا باب ، وهذه نافذة ، وهذه منضدة ، وهذا الشخص الواقف أمامك هو أخوك محمد أو صديقك حسن . أيمكن أن تنسى هذه الأشياء فلا تعرفها ؟ نعم إذا أصيبت الذاكرة بعارض من العوارض ، فيحس المرء ولكنه لا يعرف ما يحسه . فهذه حالة فتاة تسمى موديست Modeste ، ذكرها الدكتور

جان ديلاي فى كتابه « أمراض الذاكرة »[1] قال : « تبلغ موديست الثالثة والعشرين ، أصيبت برصاصة مسدس فى الجانب الأيمن من المخ ، فأصبحت لا تعرف إذا كانت مغمضة العينين الأشياء المألوفة التى توضع فى يدها اليسرى . إنها لا تزال تحتفظ بإحساسات اللمس ، ولكنها لا تميز نوع الأشياء . قالت عن قلم رصاص وضع فى يدها اليسرى : « إنه صلب ، ناعم الملمس ، طويل ، مخروطى ، فى نهايته نقطة مدببة » . وعن ملعقة : « شىء صلب بارد ، معدنى ، رفيع من الوسط ، إحدى نهاياته مفرطحة ، والأخرى أضخم ، بيضاوية الشكل ، محفورة » . وهكذا تجهل موديست الأشياء المألوفة ، مع أنها تعرفها إذا وضعت فى يدها اليمنى ، كأن يدها اليسرى قد نسيت ما تعلمه اليمنى » .

لقد ارتدت هذه الفتاة كالطفل الرضيع قبل أن يدرك ، فالطفل فى الشهر السادس يبدأ يمسك الأشياء التى تحيطه بيديه ، كالكوب مثلا أو الصندوق ، فيضع يده بداخله ، ويتحسس جوانبه ، ويظل على هذه الحال مدة طويلة ، لأن إدراك الصندوق بالبصر لا يؤدى إلى معرفة طوله وعرضه وعمقه ، بل تتدخل فى معرفته عدة إحساسات بصرية ولمسية ،

(١) Jean Delay: Les Maladies de la Mémoire, Paris 1942, P. 31

وسمعية أيضاً لإدراك صلابته ، وهذه كلها تجتمع وقتاً بعد وقت ، وترتبط بعضها ببعضها الآخر ، حتى يدرك الطفل بعد اجتماع هذه الخبرة على مر « الزمان » فى صفحة « الذاكرة » أن هذا الشيء صندوق .

والذاكرة هى التى تعين الإنسان على التصور وعلى التخيل السليم أو المريض . فإذا استحضرت صورة صديق لك فى ذهنك فإنما تستعين بالذاكرة على استحضارها . وإذا تخيل مهندس مشروعاً مثل زراعة الصحراء والبحث عن الوسائل المختلفة لريها فإنه يلجأ إلى معلوماته السابقة .

والتمييز بين الذاكرة والتخيل معروف من قديم ، فهذا أرسطو يقابل بينهما لأن الذاكرة تشمل الصور التى سبق إدراكها فى الماضى واختزنتها الذاكرة كما تحتفظ الخزانة بالأشياء . فالتذكر فى هذه الحالة يؤدى إلى التمييز بين الماضى والحاضر، وبين الحقيقى والمتخيل. إننا نتذكر الواقع ، ولكننا أحرار أن نتخيل ما نشاء . وفى ذلك يقول كانط : « إذا تخيلتُ منزلا فى إمكانى أن أتمثل السقف فى أسفله والأساس فى الهواء ، ولكنى حين أتذكر منزلا فأساسه دائماً فى أسفل وسقفه فى أعلى الهواء » . وهذا التأليف الوهمى يعتمد على معرفة عناصر البيت وأجزائه التى سبق إدراكها واحتفظت الذاكرة

بها . والحال كذلك فى الأحلام .

والذاكرة أساس الشخصية .

وليس للطفل الوليد شخصية ، إذ ليس له ماض ، وليست له ذاكرة . وهو عند ولادته ، ويظل كذلك بضعة أشهر ، جزء من العالم كنقطة من ماء البحر ، حتى يبدأ فى تمييز أنيته ، والشعور بوجوده ذاتاً مستقلة هى « الأنا » فى مقابل ما عداه أى « اللا أنا » . وإذا تأملت الطفل فى الشهر السادس تجد أنه يقبض على الأشياء بيده ثم يلقيها بعيداً عنه ، ثم يطلبها حتى إذا قبض عليها ألقاها ثانية ، وهكذا حتى يثبت عنده ، أو فى « ذاكرته » أن هذه الأشياء مختلفة عنه ، وأن « أنا » الطفل مغايرة لهذه الأشياء . فإذا تتبعنا تكوين هذه الأنا ، وهى النفس ، وهى الشخصية التى تميز هذا الشخص عن ذاك وهذا الفرد عن هذا الفرد ، رأينا أنها ليست شيئاً آخر إلا اجتماع الذكريات واختزانها عن الأشياء الخارجية التى ندركها ، وهذه الأشياء ذات فائدة لنا وهى التى نتعامل وإياها . وكلما كبر الطفل اتسعت أمامه دائرة هذه الأشياء ، وأصبح لكل فرد عالم خاص يعيش فيه ويذكره أكثر من غيره . سألنى تاجر صديق تلقى تعليما يسيراً فقال إنه يحاول أن يستكمل تعليمه وبخاصة اللغات كالفرنسية والإنجليزية لفائدتهما فى

عمله ، ولكنه لا يحس فى نفسه إقبالا ، ويضيق صدره إذا قرأ كتاباً ، وتعلم اللغات يحتاج إلى ذاكرة جيدة ، مع أن النسيان ليس طبيعة فيه ، لأنه يتذكر « فواتير » الحساب بأرقامها حتى بعد مضى عدة سنوات ، فما سبب هذا الفتور ، وما علة ضعف ذاكرته فى غير التجارة ؟ وتعليل ذلك يسير ، لأن شخصيته شخصية تاجر ، فهو يذكر كل ما يتعلق بفنه ، والتجارة عنده هى العالم الذى يعيش فيه ولا يحفل بسواه . والحال كذلك فى كل صاحب صناعة . فالممثل المطبوع يحفظ أدوار تمثيليته ولا يجد فى ذلك مشقة . فالشخصية تمتص من العالم الخارجى ما يلائمها وتذكره ولا تنساه . إنها تفاعل بين الأنا واللاأنا تحتفظ فيه الأنا بأمور وتغفل غيرها ، وهذه الأمور التى تحتفظ بها لا تتوقف على تأثير اللا أنا فقط بل على استعداد الأنا الطبيعى . وهذا هو السبب فى أن الأشقاء تختلف شخصياتهم مع أن تأثير البيت واحد . وكذلك تلاميذ المدرسة الواحدة الذين يعيشون معيشة داخلية ويخضعون لنظام واحد ويتأثرون بمعلمين بأعيانهم يختلفون فيما بينهم باختلاف أخذهم عن هذه التأثيرات .

والصفات المكونة للشخصية يكتسبها صاحبها من البيئة وتستقر فى نفسه بالتذكر ، ونعنى بهذه الصفات الميل إلى

الاجتماع أو الانطواء على النفس ، وإلى العدوان أو المسالمة ، وإلى النظام والترتيب أو الفوضى ، وغير ذلك . فالشخصية هي مجموعة ذكريات معينة تكتسب فى الماضى وتظل مستمرة فى الحاضر .

والذاكرة أساس الحياة العقلية

ذلك أن المعانى الكلية ، وهى حجر الزاوية فى الحياة العقلية ، تكتسب من النظر إلى المعانى الجزئية ، فيحتفظ الإنسان بالمتشابه منها ويرتفع إلى تكوين معنى كلى . وهذا ميل طبيعى ، نعنى القدرة على التعميم ، تعين الذاكرة عليه . ويبدو هذا الميل عند الطفل الصغير ، فهو يعرف أباه ويميزه رجلا لأن له شارباً ، فإذا رأى رجلا آخر له شارب قال عنه « بابا » . وعندما يكبر بعض الشيء يجد أن الشارب ليس من الصفات الجوهرية التى تميز الرجال . وعلى هذا النحو يدرك الطفل عندما يبلغ الثالثة أو الرابعة المعانى الكلية العامة للأشياء التى تحيطه كالتفاح والبرتقال والباب والنافذة والعصفور والقطة والكلب وما إلى ذلك ، حتى إذا قدمت إليه تفاحة ميزها وعرف أنها من هذا الصنف .

وعلى هذا النحو أيضاً تنشأ المبادىء العقلية التى تكتسب من التجارب وتحتفظ بالذاكرة ، مثل مبدأ التشابه الذى رأينا

أنه أساس تكوين المعانى الكلية ، ومبدأ السببية ، وهو عماد العلوم . وقد أنكر الفلاسفة حقيقة هذا المبدأ وناقشوا صدقه وذهبوا إلى انعدام الضرورة التى تربط بين الأسباب والمسببات ، كما فعل الغزالى وهيوم وكثير من المحدثين . ويقول الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة « ليست النار هى التى تحرق القطن إذ يجوز فى المستقبل أن ينعدم فعل النار . ولكن الطفل الصغير الذى لا يعرف النار ولا يعرف أنها تحرق ، يرى ذلك لأول مرة ، ويجرب ذلك على نفسه ، فإذا اقتربت يده من النار وأحس بألم إحراقها ، ثبت ذلك فى ذاكرته ، فلم يعاود اللعب بالنار ، وأصبح يدرك أن النار « علة » الإحراق ، بل أكثر من ذلك يعمم الطفل السبب ويطلقه على الأمور المشابهة ، ولذلك جاء فى أمثال العامة : « اللى يخاف من التعبان يجرى من الحبل » .

حتى إذا ارتقت الإنسانية ، واجتمعت لديها التجارب جيلا بعد جيل ، اشتد ساعد العلم ، وصاغ العلماء القوانين والنظريات . وليست القوانين العلمية إلا تلخيصاً واسعاً للمشاهدات يستند إلى الذاكرة ، مثل قولنا الحرارة تمدد الأجسام ، والخشب يطفو على وجه الماء ، والجسم المغمور فى الماء يندفع من أسفل إلى أعلا بقوة تساوى حجم السائل المزاح ، وهكذا .

وليست هذه القوانين من عمل فرد واحد ، بل هى أثر اجتماعى نتيجة الحضارة ونتيجة الذاكرة الاجتماعية وتقدم التجارب البشرية على مر الأجيال . حتى إذا ازدحمت العقول بالمعلومات ، وعجز الفرد الواحد عن استيعابها فى صفحة ذاكرته ، احتاجت الإنسانية إلى وسيلة أكثر رسوخاً لحفظ هذه المعلومات فاخترعت الكتابة ثم الطباعة وأنشئت المكتبات التى تزخر بآلاف المجلدات والتى تختزن تاريخ الأمم وسير الأفراد والملوك وأنواع العلوم المختلفة مما لا يمكن أن تعيه ذاكرة فرد واحد .

وكلما رتقت الحياة الاجتماعية وتقدمت الحضارة أصبحت حاجة الإنسان الى المعرفة الواسعة بالأحداث الجارية والماضية ، وبالفنون المختلفة والصناعات المتباينة، وبالعلوم التى تقوم عليها هذه الفنون والصناعات أشد وألزم حتى يستطيع مسايرة ركب الحياة . هذا إلى أن الحياة الحديثة لا تحتاج إلى الثقافة العامة الواسعة فقط بل إلى « التخصص » الشديد فى كل فن، حتى لقد انقسم الطب إلى فروع ، واختص فى كل ناحية من كل فرع إخصائى لا يتعدي أحدهم على اختصاص غيره . وهذا هو الشأن فى الزراعة، كالذى يختص بزراعة القطن، أو القمح أو الأرز ، أو الخضر ، أو الفاكهة . وقد رأيت فى الريف قوماً

ينقطعون إلى زراعة الطماطم ، وآخرون إلى غرس الموز ويسمى الواحد منهم « موازاً » . وحدثني مزارع أنه مختص بزراعة البطاطس فقط . وكذلك الحال فى التجارة وسائر الفنون والصناعات .

ولما كانت هذه المعلومات لا تحصل إلا بعد زمان طويل ، يقضى المرء بعضه فى المدرسة ، وبعضه فى الحياة العامة ، وكانت هذه المعلومات واسعة سعة عظيمة تشمل المطولات من الكتب ، احتاج الطلاب ولا ريب إلى ذاكرة قوية منظمة يستعينون بها على تحصيل هذه المعلومات ، وبخاصة لأن المجتمع الحديث يحكم عل الفرد بمقدار علمه ، أى بمقدار تحصيله ، فلا يقبل صاحب العمل عاملا أو موظفاً إلا بعد امتحان ، ولا ينجح الطالب فى المدرسة إلا بعد اجتياز الامتحان . ومن أجل ذلك برزت قيمة الذاكرة عاملا هاماً من عوامل النجاح فى الحياة .

ونشأت عن ذلك دراسات حديثة تهدف إلى بيان أقوم الطرق للتذكر وأحفظها عن النسيان ، وأجرى العلماء تجارب استخلصوا منها قوانين التذكر وقوانين النسيان ، وانتهوا إلى أن السبيل القويم لحفظ المعلومات واستحضارها عند الحاجة إليها هو حسن تنظيمها وتصنيفها، ثم ربطها بعضها ببعضها

الآخر ، وأن يكون الإنسان سيد ذكرياته بطلبها حين يحتاج إليها فتستجيب له حتى لا تصبح عبئاً ثقيلا لا قيمة له .

ومع هذه الفوائد الكثيرة للذاكرة فى سائر أنواع الحياة ، فالنسيان مفيد فى كثير من الأحيان ، بل قد يكون ضرورياً . والذاكرة فى واقع الأمر مزيج من الذكر والنسيان ، حتى لقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن لفظ الإنسان مشتق من النسيان .

ولا تعجبن من قولنا إن النسيان ضرورى للحياة النفسية ، لأن ما تقع عليه أبصارنا كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لا يدخل تحت حصر ، وكذلك جميع ما يصل إلينا بطريق الحواس ، فلو ذكرنا كل شيء لاختلط الجليل بالتافه ، وامتزج المفيد باللغو والباطل . وقد حدثتك عن ميل الطفل الطبيعى إلى صوغ المعانى الكلية التى يركز فيها المجموعة الواسعة من المحسوسات ، وحدثتك عن اتجاه الحضارة إلى تلخيص العلوم فى صيغة قوانين عامة تغنى عن الجزئيات .

ثم إن الحياة بطبيعتها متطورة متغيرة يحتاج فيها المرء إلى ملاءمة نفسه مع هذه الألوان المتغيرة من الحياة ، فيضطر إلى تحرير نفسه من الماضى بنسيانه ليتسنى له التوافق مع الحياة الجديدة . لذلك كان النسيان ضرورياً لحرية الإنسان ،

فلا يعاود حياته الماضية كما هى .

هذا إلى أن كثرة ترداد الذكريات الماضية يجعلها عادية أوتوماتيكية ، فيصبح المرء كالآلة ، أو كالحيوان الذى يتصرف بالغريزة ، ويصبح عبداً لها لا سيداً حاكماً صاحب سلطان عليها .

ويحتاج استخدام الذاكرة إلى اختيار ، وينبغى أن نحسن هذا الاختيار إذا أردنا النجاح فى الحياة ، فلا ينفك المرء عبداً لحياته الماضية يعيش فيها أبداً ولا يخرج عن دائرتها .

وكثيراً ما يكون النسيان رد فعل طبيعى لسلامة الحياة واستقامتها ، فقد تمر بالإنسان ذكريات فاجعة كلما استعادها تألم الألم الشديد ، كالذى ذهبت ثروته أو فقد ابنه الوحيد ، فإذا لم يستطع إلى النسيان سبيلا بإرادته ، أو لم تعنه الطبيعة بفقدان الذاكرة ، فضل الموت على حياة مملوءة بالآلام ، فأقدم على الانتحار . والشواهد على ذلك كثيرة فى التاريخ نذكر منها مأساة كليوباطرة ومارك أنطوان :

صفحات الماضى وأغوار الزمان

ذاكرة المرء كتاب تسطر صفحاته على مر الأيام ، فهى أشبه بالمفكرة التى يسجل فيها الإنسان يومياته ، ويكتب فيها الأحداث التى مرت عليه ليرجع إليها فى المستقبل عند الحاجة يقرأ ماضيه . وكل منا يكتب يومياته فى مفكرته على نحو معين هو الذى يهمه ، وكذلك ذاكرة كل واحد منا لا تحتفظ إلا بما شاء أن يسجله ، فهى تثبت وتمحو ، تثبت ما يهمنا وتغفل ما لا نحفل به . فلا تحسبن أن الذاكرة تسجل كل بادرة وخاطرة وواقعة .

وكما تصاب اليوميات بآفات فتتآكل منها صفحات ، ويبهت الحبر الذى تكتب به بعض الصفحات وبخاصة القديمة منها ، وقد ينتزع منها بعض الصفحات فتتطاير وتضيع ، وقد تصاب بخرم تذهب معه بعض الأوراق ، كذلك الذاكرة الإنسانية تصيبها مثل هذه الآفات ، فتضيع منها صفحات ، ويبهت بعضها الآخر ، ويمحى بعضها الثالث ، وكل ذلك فى صفحات الماضى الذى سجله المرء خلال الحياة . وهذه الآفات هى التى يعبر عنها بأمراض الذاكرة، وهى التى تحدد أنواع

النسيان ، مما نفرد له فصلا برأسه فيما بعد .

أما الآن فنود أن نتحدث عن هذا الزمان الذى يضم فى صدره هذه الذكريات ، ما هو ، وعلى أى هيئة يكون ؟

الزمان هو الماضى والحاضر والمستقبل .

أو هو ما فات وما هو آت .

أما الآن أو الحاضر فهو نقطة وهمية فى بحر الزمان ، لأنك كلما أردت الوقوف عندها مر بك الزمان ، فإذا بها تصبح من جملة الماضى .

وإذا وقفت عند الحاضر واستغرقت فيه نسيت الزمان ، ويطول هذا النسيان بمقدار استغراقك فيما أنت فيه واستمتاعك به . وقد تمر بك الساعة كأنها لحظة ، أو تمر بك اللحظة وكأنها دهر . ومن المعروف أن الناس يقطعون الوقت بالحديث والسمر والاستماع إلى الموسيقى والذهاب إلى السينما أو دور التمثيل . فأنت تقطع الوقت بأن تستغرق فى شىء خارجى ينسيك نفسك فينسيك الزمان .

من أجل ذلك كان التذكر وثيق الصلة بالزمان ، أو هو الزمان عند بعض الفلاسفة .

قد ترى شخصاً فتحدث نفسك أين رأيته ، وتفتش فى فى ذاكرتك وتقلب صفحات كتابها حتى تدرك أنك رأيته

فى الإسكندرية فى مكان معين من العام الماضى ، وقد تحدد الوقت أكثر من ذلك فتعرف اليوم والساعة . مهما يكن من شىء فالذى يهمنا هو استحضار الذكرى من الماضى إطلاقاً ، أما تحديدها فى مكان معين وزمان معين فهذا شىء آخر مكمل للذاكرة الجيدة . ولنفرض أنك دخلت حجرة لأول مرة فأدركت فيها الأثاث موضوعاً بشكل معين وأدركت الصور المعلقة على الجدران ، ثم دخلت هذه الحجره نفسها بعد عام فإنك تدرك فى الحال أنك قد سبق لك رؤية هذه الأشياء فى زمن مضى سواء عرفت الوقت الماضى تماماً فى اليوم والساعة ، أو عرفت فقط أنه كان فى الماضى . أما إذا نسيت ، ووقفت فى هذه الحجرة وكأن كل شىء فيها جديد بالنسبة إليك ، أصبح الماضى الذى مرّ بك كأن لم يكن ، وإذا أنت تعيش فى الحاضر فقط .

فالنسيان فقدان بعض أحداث الماضى ، والنسيان المستمر فقدان الزمان .

وهذه قصة امرأة اسمها نويمى Noémi (عن كتاب جان ديلاى) تبلغ من العمر الرابعة والستين ، وقد أدخلها أخوها فى مستشفى الأمراض العقلية لأنها فقدت الذاكرة تماماً ، وأصبحت لا تعيش إلا فى الحاضر .

إنها تذكر اسمها ولكنها لا تذكر سنها ولا عنوان سكنها . وهى لا تدرى أنها كانت ذات مهنة مع أنها زاولت الطب ٢٥ سنة ، وكانت تشرف بنجاح على إحدى المستشفيات . إنها لا تكاد تقرأ الصحيفة حتى تنساها ، وتنسى الإجابات على الأسئلة ، والزوار الذين يحضرون لرؤيتها ، وتعتقد أنها ترى وجوه المتصلين بها منذ مرضها لأول مرة مع أنها تراهم كل يوم .

وقد خيل إلى بعض الفلاسفة أن الزمان ليس شيئاً خارجياً له حقيقة واقعة ، بل هو من أنفسنا ، كما ذهب إلى ذلك كانط فقال : إن الزمان صورة عقلية أولية نفرضها على الأشياء حين ندركها . ويقول برجسون فى كتابه «المعطيات المباشرة للشعور» : إن التعاقب الذى نراه فى مرور عقارب الساعة إنما يوجد بالنسبة لملاحظ شاعر يتذكر الماضى .

ينشأ إدراك الزمن والإحساس به من تقلب المظاهر الخارجية مع اختلافها فى النوع والشدة وتناسبها فى الإيقاع ، كاختلاف الليل والنهار ، وانتقال الشمس من المغرب إلى المشرق وما إلى ذلك . فإذا كنا فى النهار ذكرنا أننا كنا بالأمس فى الليل ، ولو نسينا ذلك الليل ، أدركنا هذا التعاقب . ولو عشنا فى ليل مستمر ما عرفنا الأيام . وقد حكى مسجون وضع فى زنزانة لا نوافذ لها ولا إضاءة فيها أنه لم يعد يعرف الوقت . وعند

زوال تعاقب الأشياء واختلافها نفقد الإحساس بالزمان الذى يدور ، أو بالأشياء التى تتحرك داخل الزمان . وهذا ما يحدث لمن يجلس على شاطئ البحر الهادئ ويستغرق فى النظر إليه ، فينسى كم لبث وينسى الزمان . ولذلك كان النوم الهادئ العميق من الفترات التى يقطعها المرء خارج الزمان . ونحن لا ندرك كم مضى علينا من الوقت فى النوم إلا حين ننظر إلى المظاهر الخارجية فنرى أن النور قد أشرق ونعلم أن الصبح قد طلع . وفى ذلك يقول تعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » .

ومع ذلك فالإنسان يستطيع إدراك الوقت دون الاستعانة بمقياس خارجى كالساعة الدقاقة مثلا ، يدركه وهو نائم ، فإذا كنت معتاداً أن تستيقظ فى الصباح الساعة السادسة كل يوم لتذهب إلى عملك ، فإنك تستيقظ فى هذا الموعد تماماً حتى لو كان اليوم يوم عطلة . وروى شخص أنه لم يكن معتاداً النوم بعد الظهر أبداً إلى أن اضطجع ذات مرة على أريكة ، فأخذه النوم عصراً واستيقظ عند الأصيل فرأى النور باهتاً قبل الغروب فخيل إليه أنه قد استيقظ فى الفجر قبل الميعاد ، فأغمض عينيه ليكمل نومه ، ولكنه لم يستغرق فى النوم ، ففتح

عينيه ليرى أن الظلام قد أصبح دامساً ، وعندئذ فقط أدرك أنه كان قد نام بعد العصر .

وروى عن بعض الفلاسفة المحدثين أنه لم يكن يحمل ساعة اعتماداً على إحساسه الشخصى بالزمن . وهكذا كان الناس يفعلون قبل اختراع الساعات الدقاقة .

جملة القول الذاكرة هى التى تمدنا بالإحساس بالزمان وتعاقب الأحداث ، وهى التى تهيئ لنا سبيل قياس الزمان .

والذاكرة هى التى تمدنا بفكرة الزمان المستقبل قياساً على الماضى . والواقع أننا لا نبصر المستقبل ، بل نتبصره ، أو نتوقعه . والحياة فى جملتها حركة إلى الأمام يعمل الإنسان حسابها بمقتضى ما فات . ولو ذهب عن الإنسان هذا المعنى لأصبح كالحيوان الذى يعيش فى حاضره ، أو تكيفه الظروف الخارجية ، أو تدفعه الغريزة العمياء ، أو كالوليد الرضيع الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولكنه يعيش مع ذلك .

ولسنا نحيا حياة الوليد الذى لم يدرك بعد ، بل حياة العقلاء الذين يعتمدون على ماضيهم فى العمل مستقبلا .

ولقد استطاع الإنسان أن يجرد فكرة الزمان ، وأن يستخلصها ، وأن يمضى بها فى المستقبل إلى غير نهاية ، فنشأت من ذلك فكرة « الأبد » وهو لا نهاية الزمان فى المستقبل ، كما أن

« الأزل » لا نهاية الزمان فى الماضى ، وكان الأزل والأبد عماد سائر الأديان عند المتحضرين . بل لقد طبق الإنسان هذه الفكرة على نفسه فاعتقد فى خلود الروح بعد فناء البدن .

فالذاكرة هى التى تمدنا بفكرة الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، فالذاكرة والزمان متصلان اتصالا وثيقاً .

وقد أجرى بعض العلماء أبحاثاً لبيان هذه الصلة سواء عند الحيوان أو عند الإنسان فيما يختص بما سموه « الزمان الحيوى » أو البيولوجى . والزمان الحيوى متصل بالحاجات البيولوجية كالطعام والشراب واليقظة والنوم وإخراج الفضلات وما إلى ذلك .

وهذا الزمان الحيوى أساس الذاكرة الآلية التى حدثتك عنها .

وقد أثبت العالم الروسى بافلوف هذه الصلة عند بحثه عن الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط . وفى تجربته المشهورة على الكلب ، كان يقدم له الطعام فى وقت معين فيفرز الكلب اللعاب عند رؤية الطعام ، لأن الطعام مؤثر طبيعى يدفع إلى إفراز اللعاب . وكان يدق مع تقديم الطعام جرساً ، وبعد عدة مرات كان يكفى أن يسمع الكلب دقة الجرس حتى يفرز اللعاب .

ونحن كذلك نحقق حاجاتنا الطبيعية فى مواعيد تعلمناها وتعودناها طبقاً لدورة زمانية لا تخطىء . فإذا حان موعد الغداء شعرنا بالجوع ، ويقضى الطفل الرضيع حاجته فى مواعيد دون أن يلوث فراشه . وإذا تعود أحدنا أن يستيقظ فى ساعة معينة استيقظ فى هذا الموعد حتى فى أيام العطلة . وأول أيام الصوم فى رمضان يكون عسيراً لخروج المرء عما ألفه . وفى بعض الأحيان ينسى الصائم فيأكل نهاراً . ومن الفكاهات التى تروى أن صائماً دخل المسجد يصلى الظهر جماعة فتحسس جيبه فوجد فيه بلحاً ، فأخرج بلحة وأخذ يأكلها ، فغمزه جاره يريد أن ينبهه وينهره ، فقال له « والله هذه آخر بلحة وليس معى غيرها » .

وذهب بعض العلماء فى مباحثهم الأخيرة إلى أن الغدة فوق التلموسية Hypothalamic هى التى تحتفظ بالإيقاع الزمنى الناشىء من الدورات الحيوية كالجوع والعطش والنوم وما إلى ذلك ، فهى أشبه بالساعة الدقاقة للكائن الحى .

والذاكرة هى أساس الزمان الاجتماعى ، هذا الزمان الذى اصطلح المجتمع عليه فى تسيير أموره وضبط أحوال معاشه . فقد اهتدى قدماء المصريين إلى السنة الشمسية لحاجتهم إلى الزراعة ومعرفة مواعيد الحرث والبذر والحصاد ، وأصبح الزمان

موضوعياً خارجياً يقسم إلى أعوام، وتقسم السنة إلى فصول وإلى أيام . ولم يكن الزمن فى أول الأمر ثابتاً موضوعياً كما أثبت دوركهايم وماوس فى أبحاثهما الاجتماعية ، بل نشأ أولا فى ضمير الشعوب البدائية لخدمة الاحتفالات الدينية والأعياد والمواسم ثم نشأ التقويم السنوى تابعا لهذه الاحتفالات والأعياد. ثم انتقلت فكرة الزمان من الذاتية إلى الموضوعية وأصبح الزمان عاماً للمجتمع بأسره ، لا ملكاً لشخص ، حتى أضحى الفرد مضطراً إلى التزام توقيت المجتمع الذى يعيش فيه والخضوع لقيوده . وإذا كره الإنسان المجتمع هرب منه ، وهرب من هذه القيود ، وتحلل من هذه الالتزامات ، فترى الطالب يذهب متأخراً إلى مدرسته وكذلك الموظف إلى عمله ، أو يستعين المرء بما يجعله ينسى الزمان ، فينغمس فى شرب الخمر ، أو تدخين الأفيون والحشيش ، وهذا ما بينه مورو دى تور وكوينسى وبودلير فى مذكرات آكل الأفيون ، حيث يخيل للمدمن أن الدقيقة دهر وأن اللحظة التى يعيشها أبد لا ينتهى .

وإنما استطردنا إلى الكلام عن الزمان لأنه أساس الذاكرة يحتوى فى صدره على سر الأحداث الماضية ويطويها فى زوايا النسيان.

وإذا أسفر الزمان عن وجهه أشرقت الذكريات.

وإذا احتجب حجبها معه وغابت عن الأنظار .

فما هو علة إشراقه وكيف تسجل الأحداث على صفحة الزمان .

وما سبب احتجابه وكيف تختفى الذكريات فى خبايا النسيان .

هذا هو موضوع الفصول المقبلة حيث نتحدث فى الفصل الآتى عن طرق التعلم والاكتساب ، وعما سماه العلماء « بخط التعلم» وكيف يتجه صاعداً على مر الأيام ، لأن النسيان متوقف على التعلم ، فكلما كان التعلم أجود وأنظم وأثبت كان النسيان أقل وأبطأ . وإذا أردنا أن نعالج النسيان فعلينا أن نحسن التعلم. ثم نتحدث فى الفصل الذى يليه عن « خط النسيان » الذى يتجه هابطاً على عكس خط التعلم الذى كان يتجه صاعداً . وكلا الخطين يبينان التعلم العادى والنسيان السليم . أما الشذوذ فى النسيان الذى يعد مرضاً فهذا باب آخر .

ولا نود فى هذا الكتاب الصغير أن نشير إلى مذاهب القدماء الذين زعموا أن النفس تعلم كل شىء قبل اتصالها بالبدن ، حتى قال أفلاطون إن العلم تذكر والجهل نسيان . أو مذاهب الذين يعتقدون فى علم النفس بعد مفارقتها البدن سواء فى حالة الحياة أم بعد الموت ، كما زعم الرئيس ابن سينا وغيره ، لأن هذه المباحث تخرجنا عن نطاق العلم .

خط التعلم

حضرت العام الماضى «سيرك مدرانو» الذى نصب خيامه بالقرب من ميدان محطة مصر . ولم يكن الدافع لى مجرد اللهو وتزجية الفراغ أو الترويح عن النفس ، بل للتأمل والدرس والاطلاع على تجارب واقعية ، أو نتائج التجارب التى أجراها أصحاب السيرك ، وهم أشبه بالحواة ، على حيوانات يخيل إليك أنها أبعد الأشياء عن التدريب والترويض ، كالسبع والفيل والنمر والخيل والكلاب وغير ذلك .

وقد يخيل إليك أن السبع يسمع كلام مروضه ، كما يسمع الطفل المطيع كلام أمه وينفذ أمرها ، فيصعد درجاً ثم يقفز من خلال حلقة ملتهبة بالنار ثم ينزل الدرج من الناحية الأخرى. فكيف وصل المروض إلى تدريب هذا الوحش وتأديبه حتى يبلغ به هذا الحد من السلوك المخالف لطبعه من جهة ، والمقيد بنظام دقيق موقوت لا يخطىء من جهة أخرى ؟

فن الترويض خاضع لقوانين نفسانية ، وهذه القوانين تعم الحيوان الأعجم والإنسان الذى يدرك ويفهم .

فالإنسان حيوان ولا يمتاز عن سائر الحيوانات إلا بالكلام ،

ولذلك عرفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق .

وهو يتعلم الحركات الآلية كما يتعلم الحيوان، ويتعلم فوق ذلك كيف يتكلم أي اللغة ، وقد يتعلم عدة لغات إذا احتاج إلى التفاهم مع قوم يتكلمون بغير لسانه ، بل أصبح الإنسان مع تقدم الحضارة وانتشار التعليم فى حاجة إلى تعلم لغة أخرى أجنبية أو عدة لغات ليطلع على ثمار الأفكار وقرائح العقول وأحدث المخترعات وآخر الاكتشافات العلمية حتى يساير ركب الحضارة .

واللغة ألفاظ تحمل معانى. واللفظ رمز إذا لم تفهم معناه أصبح مجرد صوت يصعب تذكره . وليست الألفاظ هى الرموز الوحيدة التى تجرى بين الناس فى المجتمع . فالحساب والجبر والقوانين العلمية المختلفة رموز كذلك . وما معنى س + ص = كذا، وما معنى جدول الضرب؟ ومع ذلك فالطفل حين يذهب إلى المدرسة مضطر إلى تعلم هذه الرموز اللغوية والحسابية وغيرها ، على الرغم من خلوها من المعنى وظهورها بمظهر الطلاسم . ولذلك يشق التلميذ فى تعلم هذه الأمور ، وليس له من سبيل إلا أن يلجأ إلى الذاكرة الصماء .

فالذاكرة منها آلية حركية ، ومنها لفظية وهى التى سميناها فى أول الكتاب ذاكرة المعرفة ، وهى المخصوصة بالإنسان .

وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة على كلا النوعين من الذاكرة .

ولنبدأ بالذاكرة الآلية ولننظر كيف يتعلم الحيوان.

ومن التجارب المشهورة تجربة « المتاهة » ، وهى صندوق يقسم من الداخل بعوارض يتيه فيها الحيوان ، الذى يتحرك بدافع من الجوع وطلب الطعام الموضوع فى الجانب الآخر . ويلاحظ أن الحيوان يندفع هنا وهناك ، وكلما رأى الطريق مغلقاً عاد وجرب الاتجاه فى طريق آخر ، حتى يهتدى إلى الطريق الصحيح . وأول من أجرى هذه التجربة هو العالم النفسانى يركس Yerkes من أئمة المذهب السلوكى ، وذلك منذ نصف قرن مضى ، فوضع سلحفاة فى صندوق متاهة وجلس يراقبها فبلغت الهدف بعد ساعة وخمس وثلاثين دقيقة . وفى المرة الخامسة استغرقت السلحفاة ١٦ دقيقة . وفى المرة العاشرة ٤ دقائق ، وفى المرة العشرين ٣ دقائق و ٢٠ ثانية .

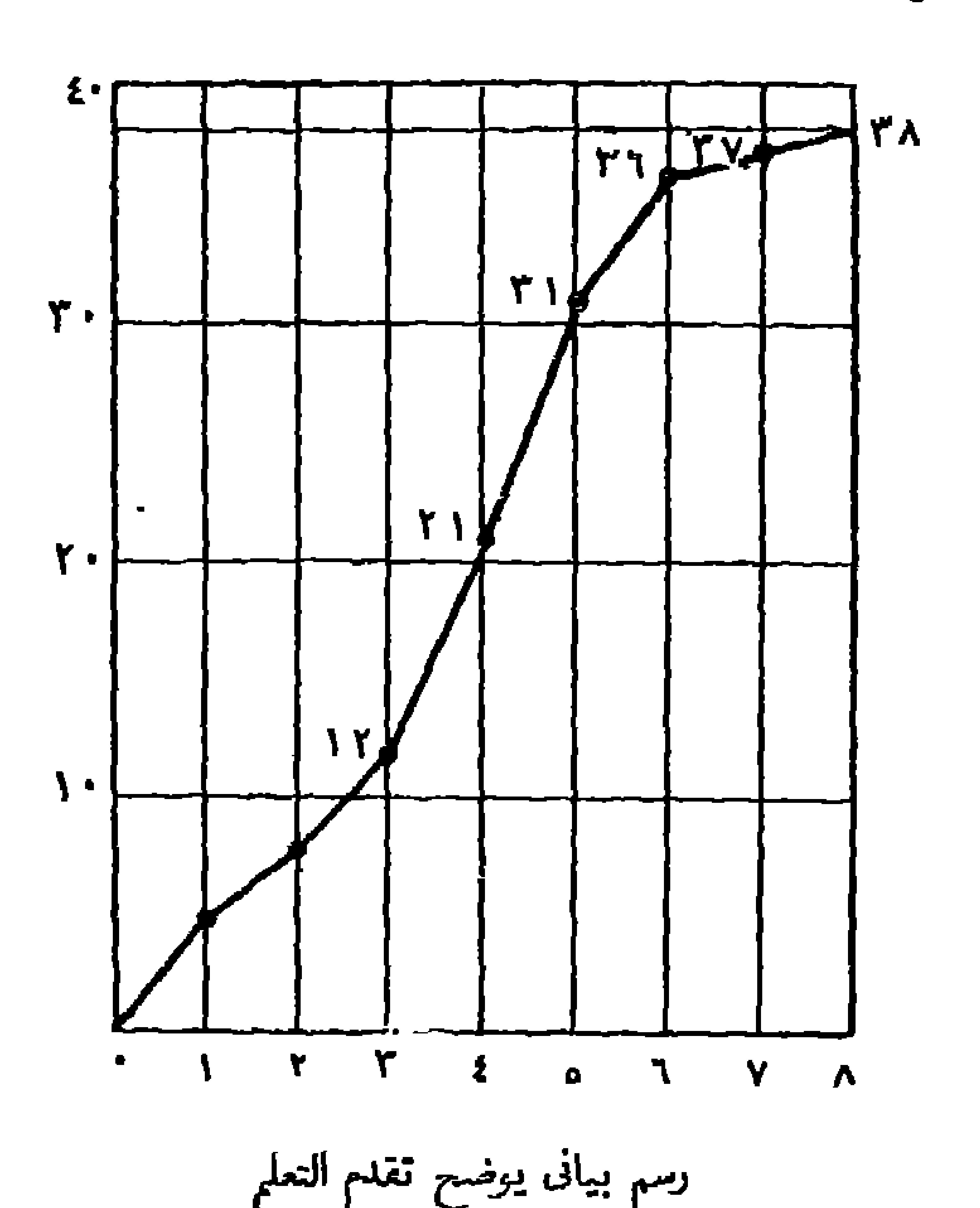
فالسلحفاة تتعلم من التجربة وحذف الأخطاء Trial and error

والإنسان يتعلم على هذا النحو أيضاً . ولنفرض أن السيد مصطفى عبد العزيز أراد أن يتعلم الآلة الكاتبة ، فاشترى آلة حملها إلى منزله ، وجلس أمامها وأخذ يجرب كتابة رسالة إلى صديق وكانت تبدأ كما يلى : « حضرة السيد محمد أبو ريشة » . فلما أراد أن يكتب السطر التالى رأى غلطاً كثيراً فى السطر الأول ، قاف بدلا من ضاد ، واو بدلا من راء ، وهكذا ، فإنه يضيق ويعاود

ثانية ، ويحاول تجنب الأخطاء الأولى ، فيجد أنه تحسن بعض الشيء فى المرة الثانية ، فيعاود ثالثة ، ومن جملة هذه المحاولات التى يتجنب فيها الأغلاط السابقة يتحسن تعلمه ويسير إلى الأمام .

وإليك نتيجة التجربة التى أجراها بيرون Piéron على شخص يجرب بقلم الآلة الكاتبة فى عبارة معينة :

عدد المحاولات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
عدد الضربات الصحيحة	٥	٨	١٢	٢١	٣١	٣٦	٣٧	٣٨



رسم بيانى يوضح تقدم التعلم

يخضع خط التعلم هنا لأمور ثلاثة : المحرك ، وعدد مرات المحاولة ، والمكافأة .

أما المحرك فهو الباعث الخارجى الذى يشتاق إليه الحيوان أو الإنسان فيندفع بجميع قواه النفسية إلى بلوغه . فالسلحفاة تريد بلوغ العش ، ومصطفى عبد العزيز يريد تعلم الآلة الكاتبة لنفعها فى عمله .

والأصل فى المحرك أن يكون طبيعياً ، ولذلك كان التعلم طبيعياً فى الكائن الحى . فطلب الطعام ، والانعطاف نحو الجنس الآخر ، وبعض الحاجات الفسيولوجية كلها محركات فطرية ، وهى الأصل كذلك فى تحريك الإنسان ، لولا أنه مع الحضارة ظهرت محركات جديدة دعت إليها الضرورة الاجتماعية ، كالمال ، والمنازل الاجتماعية المختلفة التى تجلب السلطان أو الشهرة أو المجد ، والعلم ، وغير ذلك .

ولا تزال الوظائف الحكومية هى المحرك الأكبر لهمة الشعب فى مصر ، والسبيل إلى بلوغها هو الالتحاق بالمدارس والحصول على « الشهادة » لأنها مسوغ التعيين فى الوظيفة . وحين اجتمعت كلمة الأمة على إخراج الإنجليز من منطقة قنال السويس ، ورأى المصريون ألا سبيل إلى إجلائهم إلا بالقتال ، تهافتوا على تعلم السلاح واستعماله ، وأنشئت معسكرات التدريب

فى حرم الجامعة وفى غيرها من الميادين ، فكان إجلاء الإنجليز هو المحرك لتعلم الفدائيين .

فإذا فعل المحرك فعله ، وبعثء الهمة ، واندفع الإنسان يتعلم ، فليس يكفى مرة واحدة يجرب فيها السلوك الجديد كى يتقنه ، ولا مرتان ، بل مرات كثيرة يتحسن خلالها ، ويسير « خط التعلم » كما رأينا إلى الأمام بسرعة، ثم يبلغ حداً يقف عنده .

فالتكرار ضرورى فى تثبيت الحفظ وتمكين التعلم .

أما لماذا يميل الحيوان أو الإنسان إلى تكرار ما سبق فعله فذلك متوقف على قانون سماه الأستاذ ثورنديك « قانون النتيجة » Law of effect ، فالسلحفاة حين تبلغ العش وهو هدفها أول مرة ترتاح ، وكذلك الذى يتعلم الآلة الكاتبة حين يصيب الحرف الصحيح يفرح ويشعر بلذة ، هى لذة الظفر والنجاح . والنصر عند بلوغ الهدف مكافأة تعوض الإنسان عن متاعب السعى وتنسيه آلا م الكدح . فالعمل الذى يحقق حاجة الإنسان يحتفظ به ويميل إلى تكراره ، هذا هو منطوق قانون النتيجة . ويميل بعض العلماء إلى تعليل هذ القانون بأن الأعصاب تظل فى حالة توتر حتى بلغ الكائن غرضه فترتخى أعصابه ارتياحاً . والحيوان يميل إلى الارتخاء لا إلى التوتر ، ولذلك يكرر

ذلك العمل .

هذا هو تفسير التكرار الجسمانى وأثره فى اكتساب المهارة، أما التكرار اللفظى وأثره فى الحفظ فله تعليل آخر نذكره فيما بعد .

وللتعلم طريق آخر خلاف المحاولات والابتعاد عن الغلط هو « التعلم الشرطى » الذى بين أساسه العالم الروسى بافلوف . وتجربته على الكلب الذى يسيل لعابه عند دق الجرس قد عرفتها من قبل. وقد حدثتك فى أول هذا الفصل عن الحيوانات التى يشاهدها المتفرجون فى السيرك تقوم بالعجيب من الأفعال . ومن المشاهد المألوفة عندنا القرداتى الذى يعرض فنه على الجمهور فيطلب من القرد أن يضرب « تعظيم سلام » فيقف على قدميه الخلفيتين ويرفع يديه للتحية . أو العرب الذين يُرَقِّصون الخيل على صوت الموسيقى . وقد سألت أعرابياً كيف درب حصانه على الرقص ، وعجبت أن الحصان على غير ما أعتقد لا يسير على توقيع الوزن الموسيقى ، بل الراكب هو الذى يشد اللجام شداً معيناً ويضربه بالمهماز ضرباً خاصاً ، بحيث يستجيب الحصان للشد والهمز فيخيل إليك أنه يستجيب من تلقاء نفسه للموسيقى . ويعتمد هذا التدريب كله على مبدأ ربط المؤثر الطبيعى بمؤثر جديد ، بحيث يتعلق المؤثر الطبيعى بهذا « الشرط » ،

ومن أجل ذلك سمى ذلك التعلم شرطياً ، أى متعلقاً بشرط جديد . ففى المراعى الواسعة حين يرغبون فى رد المواشى عن الأسوار ويرغمونها على البقاء داخلها يكهربون الأسوار حتى إذا هجمت عليها البقرة أحست بلسعة الكهرباء فى أنفها ، وفى الوقت نفسه ترى السور ، وعندئذ يكفى أن ترى البقرة السور فتبتعد عنه . ونحن نتعلم ، ونعلم أبناءنا ، ونعلم الشعب ، طبقاً لهذا القانون . نحن نعلم الطفل الوليد قضاء حاجته فى مواعيد وفى إناءخاص. ونعلم أفرادالشعب الذين يقودون السيارات أن يقفوا فى الطريق عند رؤية الضوء الأحمر ، حتى يصبح ذلك عملا آلياً يكفى أن يرى السائق النور الأحمر فيقف ، ومع ذلك قد ينسى ، وهذا منشأ حوادث السيارات .

فما علة هذا النسيان ؟

لا ريب أن الذى يتعلم قيادة السيارات يخطىء فى البداية ، وكلما طال به الزمن ورسخت فى نفسه العادة قل خطؤه . فأول شرط فى عدم النسيان كثرة التكرار ورسوخ العادة . وهناك أسباب أخرى نذكرها فى موضعها .

ونسيان الأعمال الآلية محتمل ، وقد تترتب عليه نتائج نتائج خطيرة ، ولذلك ينبغى أن يأخذ المرء حذره حتى لا ينسى فيضر نفسه أو غيره . فمدرب النمر أو الأسد فى السيرك يمسك

بيده مسدساً خشية نسيان الوحش ما تعلمه ورجوعه إلى توحشه . وقد ينسى الجراح مشرطاً أو مقصاً فى بطن الجريح بعد إجراء العملية ، ولذلك يعدون المشارط قبل العملية وبعدها توقياً للنسيان .

وهناك مبدأ آخر خلاف المحاولة والغلط والتعلم الشرطى هو التعلم عن طريق « المحاكاة » ، سواء عند الحيوان أو عند الإنسان . ونحن نتعلم كثيراً من ألوان السلوك الاجتماعى عن هذا الطريق ، نكتسبها من الأب والأم والأهل فى الأسرة ، ومن المجتمع الذى نعيش فيه ، كطريقة الأكل والملبس والمشى والنطق والصلاة فى المسجد أو الكنيسة ، وآداب السلوك المختلفة وغير ذلك .

غير أننا حين نرسل الطفل إلى المدرسة نطلب منه تعلم اللغة والأدب والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلوم الأحياء ، ولا ننتظر منه أن يتعلم بطريق المحاولة والخطأ أو الشرط أو التقليد ، بل لا بد أن « يحفظ » هذه العلوم ومبادئها عن ظهر قلب ، لأنها أساس لا غنى عنه فى كسب العلوم بعد ذلك ، مثل القرآن الكريم وهو أساس الدين واللغة العربية ، أو على الأقل بعض أجزائه ، ومثل المحفوظات فى اللغة نثراً أو شعراً يتأدب بها المرء ويتفصح لسانه ويعلو

بيانه ، ومثل جدول الضرب فى الحساب ، ومنطوق النظريات الهندسية وبعض القوانين فى الميكانيكا والطبيعة والكيمياء وما إلى ذلك .

هذه المحفوظات جميعاً تسمى « لفظية » على خلاف الأعمال العادية التى نتدرب عليها ونمهر فى أدائها . والسبيل إلى تعلمها وحفظها هو تكرارها وتسميعها عدة مرات حتى تثبت فى الذهن وقد أجرى العلماء على هذا الضرب من التعلم اللفظى عدة تجارب وخرجوا أيضاً بخط للتعلم ، وبينوا أثر مرات التكرار ، وفائدة التسميع ، وفضل التكرار الموزع على عدة أيام .

وقد روى عن قوم وهبوا ذاكرة قوية تستطيع حفظ ما يلقى عليهم أو ما ينظرون فيه بعد مرة واحدة . وهذا نوع من الشذوذ لا ينطبق على أغلبية الناس .

روى أنه كان المتنبى يجلس فى شبابه إلى وراق فوجد عنده كتاباً من كتب الأصمعى يتكون من نحو ثلاثين ورقة ، فأخذ ينظر فيه طويلا . فقال له الوراق : يا هذا أريد أن أبيعه ، وقد قطعتنى من ذلك ، فإن كنت تريد حفظه فى هذه المدة القصيرة فبعيد . فقال له المتنبى : إن كنت حفظته فمالى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . ثم أخذ الوراق الكتاب ، وجعل أبو الطيب يتلوه عليه إلى آخره ، ثم أخذه وجعله فى كمه

وقام . فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن . فقال : ما إلى ذلك سبيل ، قد وهبْتَه لى ؛ فتركه عليه .

ويروى عن أحد الخلفاء أنه كان على استعداد أن يدفع وزن القصيدة ذهباً إذا كانت جديدة . وكان عنده ثلاث جوار الأولى تحفظ القصيدة بعد سماعها مرة واحدة ، والثانية بعد مرتين ، والثالثة بعد ثلاث مرات ، فإذا تقدم شاعر إلى بلاط الخليفة ، جعل الجوارى خلف الستر ، وطلب منه إنشادها ، فتسمعها الأولى ، فيقول الخليفة هذه قصيدة معروفة وعندى جارية ترويها ، فترويها الجارية الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة . فيخرج الشاعر بغير جائزة . وعرف الشعراء الحيلة ، فتقدم شاعر بقصيدة معقدة يصعب حفظها مطلعها « صوت صفير البلبل » . فعجز الجوارى عن تسميعها .

ويستفاد من هذه القصة أن حفظ الأشياء ذات المعنى أيسر مما لا معنى له . وإنما يسهل حفظ ما له معنى لأنك تستطيع « ربطه » بشىء آخر ، وأن تصله بجملة ما تعلمته من قبل وأدركت معناه .

ويلجأ العلماء فى تجارب الحفظ إلى اصطناع مقاطع لا معنى لها وذلك لقياس المقدرة الصرفة على الحفظ . وفى بعض الأحيان يجرون التجارب على حفظ أرقام ، لأن

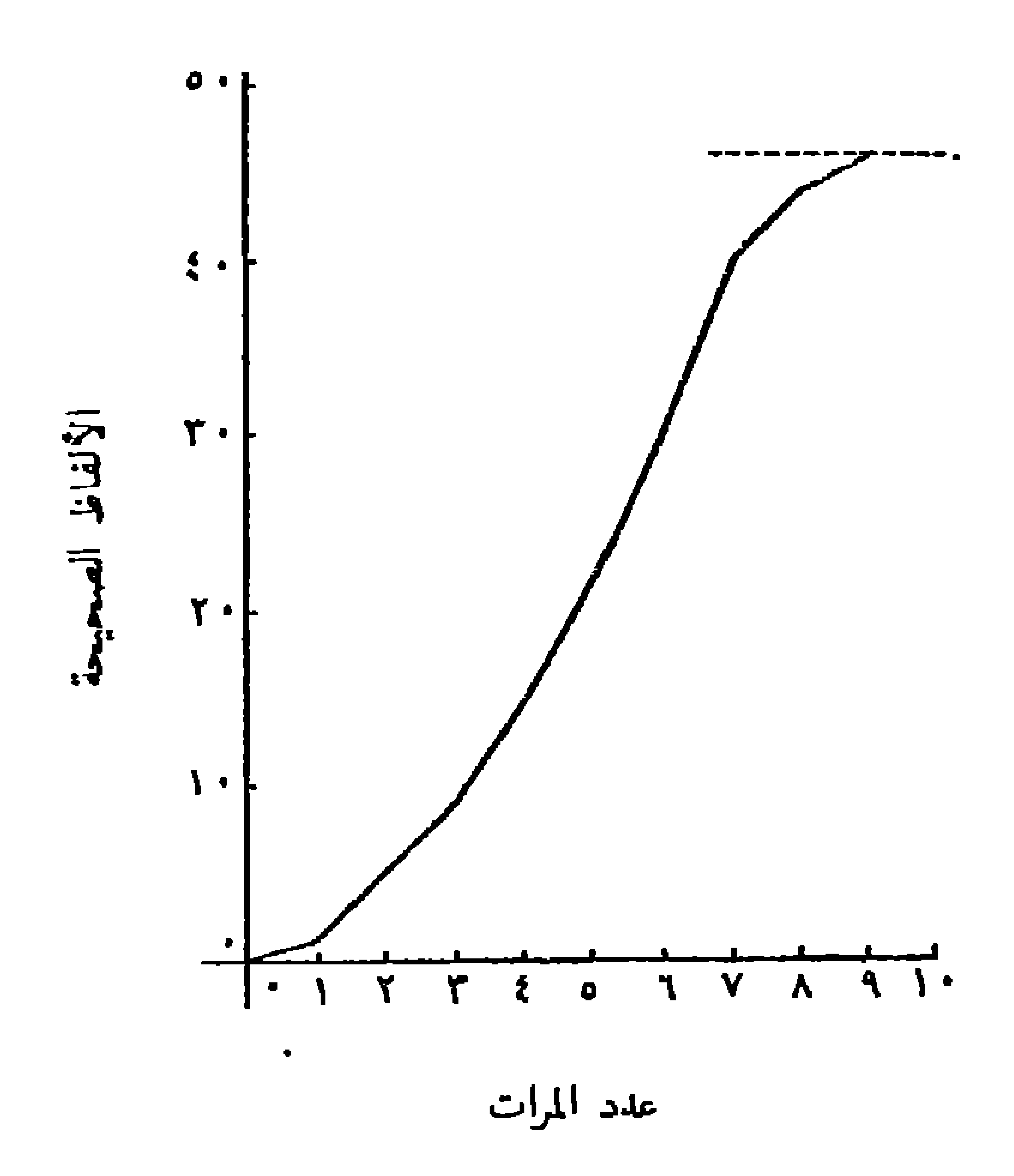
الأرقام لا معنى لها . وكذلك الحال فى حفظ الرموز الجبرية والاصطلاحات . لا ريب أن حفظ هذه الأشياء أبطأ ولكن الذهن البشرى يصل مع ذلك إلى حفظها ، مع التكرار ، وبقانون التلازم أحد قوانين الترابط الثلاثة ، وهى التلازم والتشابه والتضاد .

والتلازم ضرورى فى الحفظ ، وهو عبارة عن تجاور الألفاظ . ومعظم الأطفال يحفظون عن ذلك الطريق ، وتسمى الذاكرة حينئذ « صماء » أى ذاكرة لفظية بغير معنى . ولذلك يلاحظ أن الذين يحفظون بهذه الطريقة يكررون ما حفظوه كالببغاء ، وإذا توقف أحدهم أو نسى ، يكفى أن تذكر له أول كلمة فى بيت الشعر فيكرر البيت .

وإليك نتيجة إحدى التجارب التى أجراها الأستاذ جوييه Guillet على شخص إنجليزى يتعلم ألفاظاً يابانية لا معنى لها بالنسبة له ، لبيان أثر مرات التكرار فى تقدم التعلم .

عدد المرات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
الألفاظ الصحيحة	١	٥	٩	١٥	٢٢	٣٠	٤٠	٤٤	٤٦

وسوف نتحدث عن « خط التعلم » إطلاقاً سواء أكان خاصاً بالأعمال الآلية أم المحفوظات اللفظية . وقد درس العلماء



هذا الخط ، وتتبعوا أشخاصاً سنوات عدة ، وأجروا عليهم اختبارات كثيرة بين حين وآخر لمعرفة أثر التعلم .

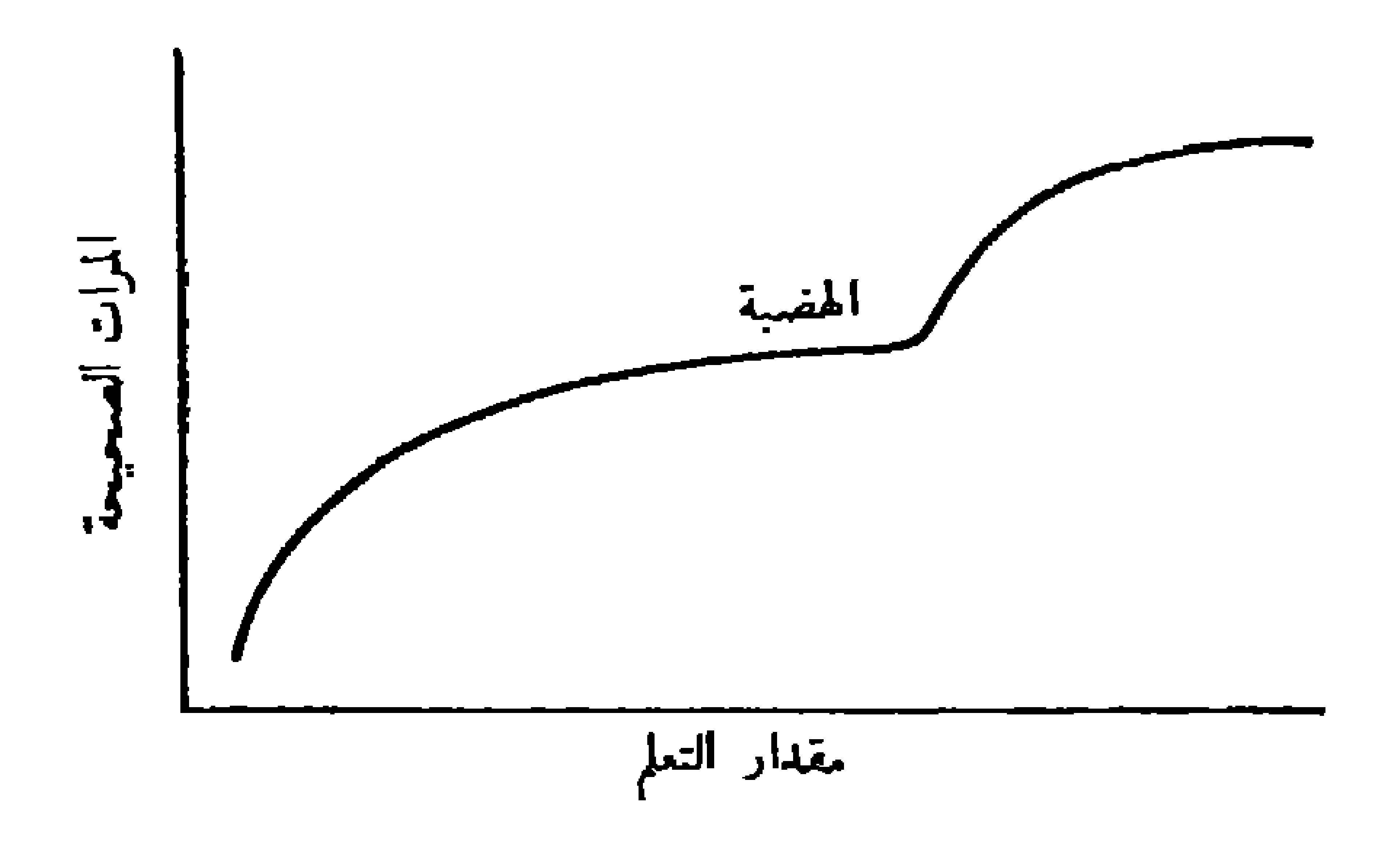
إذا تأملت في الرسم البيانى رأيت خطاً أفقياً ، وآخر رأسياً ، وجرت العادة أن يكون الخط الأفقى خاصاً بمقدار التعلم ، والرأسى يعتمد على الأول ويبين إما مقدار الغلط ، أو الزمن المستنفد ، وما إلى ذلك .

ولا يجرى خط التعلم فى استقامة ، بل يعلو ويهبط غير منتظم ، لأن قدرة المرء تتذبذب من لحظة إلى أخرى ومن يوم إلى يوم ، وهذا يرجع إلى الحالة الجسمية التى تتأثر بالنوم والهضم وغير ذلك . يضاف إلى ذلك أن المتعلم لا يستمر إلى غير نهاية بل يتوقف بين حين وآخر ، وقد تطول فترات التوقف أياماً أو شهوراً .

وإذا طال زمن التعلم سنوات أشار خط التعلم إلى ما يسمى بالهضاب . و « هضبة التعلم » تدل على الثبات عند حد معين بلغه الشخص ، ويستمر واقفاً عنده . مثال ذلك الذى يتعلم البلياردو فيصل بعد مدة إلى مستوى معين من الإصابات الصحيحة فى الساعة، وليكن أربعين ، ثم يحاول بعد عام أن يعدل من فنه فيرتفع إلى ستين ، وهكذا .

وهناك عوامل كثيرة تعين على سرعة التعلم .

منها قوة الانتباه ، أو التذكر بالقصد والإرادة . فقد ثبت من بعض التجارب فى علم النفس ، ولم يكن الغرض فيها قياس الذاكرة، أن المجرب عليهم لم يتذكروا من اللوحة التى عرضت عليهم إلا القليل جداً. ولذلك يجب البحث فى شهادة الشهود فى المحكمة، إذ قد تقع حادثة أمام عدد من الناس ، فيطلبون للشهادة ، فينسى معظمهم تفاصيل ما دار بين الخصوم



من حديث ومشاجرة وما إلى ذلك ، لأن كثيراً منهم لا يلقون إلى أصحاب الحادثة بالا ، ولا يحسن التذكر إلا من انتبه إليهم بوجه خاص .

يروى فى هذا الباب أن شاهداً أدلى بشهادته أمام محكمة الجنايات فى جريمة قتل ، وأجاب عن أسئلة المحكمة وبخاصة ملابس المتهم ولونها عندما أطلق النار على المجنى عليه . وناقشه المحامى ، فأدار له ظهره ، وسأله ما لون الكرافتة التى يلبسها ؟ وأخطأ المتهم فى معرفة اللون ، فطلب المحامى استبعاد شهادته ، إذ كيف يطمئن المرء إلى شهادته عن المتهم وهو لا يذكر ما يراه الآن . غير أن مرافعة المحامى تقوم على مغالطة نفسانية ، لأن الشاهد كان منتبهاً إلى المتهم فلاحظ ملابسه وتذكرها ؛

ولم تكن هناك حاجة إلى ملاحظة المحامى والانتباه إلى مظهره . ويسمى العلماء هذا الضرب من الذاكرة ، بالذاكرة العرضية Incidental memory ، وأثبتوا أن مقدار ما تحتفظ به أقل كثيراً من الذاكرة الإرادية التى تكون عن قصد . ويعزى إلى هذا العامل أيضاً ضعف ذاكرة الأطفال لأن قدرتهم على الانتباه أقل من قدرة الكبار .

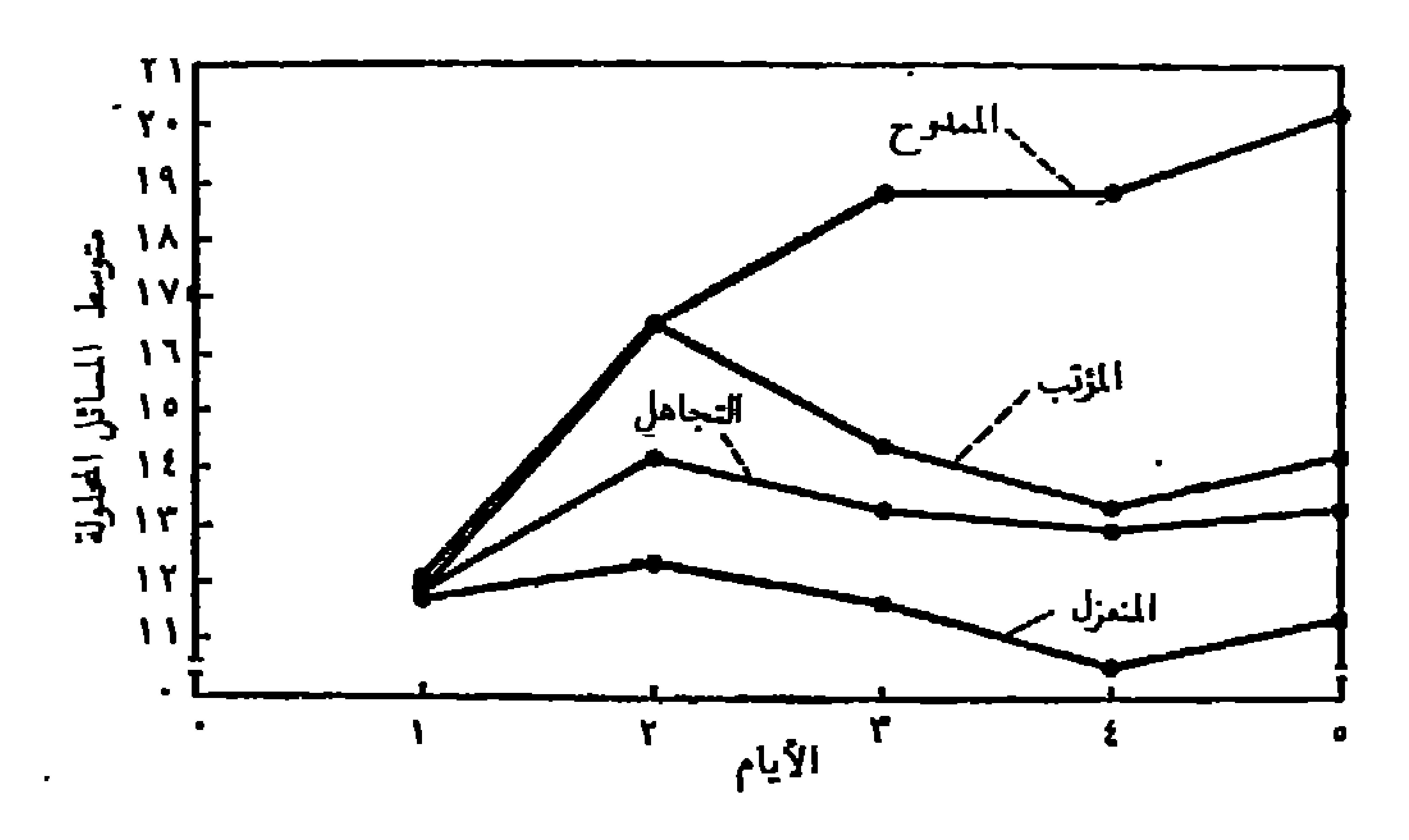
ومن أقوى العوامل على سرعة الحفظ وقوة التعلم وثباته «الاهتمام» Interest . وقد رأيت قوماً يشكون من ضعف الذاكرة ، وبخاصة الطلبة ، على الرغم من انقطاعهم للاستذكار مع كثرة التكرار . والعلة فى ذلك أنهم لا يشعرون باهتمام إلى ما يحاولون حفظه . بل إن هذا النسيان دليل على انعدام الميل . وقد درج الآباء فى مصر على أن يوجهوا أبناءهم فى الدراسة توجيهاً خاطئاً لا يقوم على ميل الطفل ، فالأب يريد من ابنه أن يكون طبيباً ، أو مهندساً مثل ابن فلان ، وقد تكون نزعة الطفل إلى الدراسات الأدبية وإلى معرفة اللغات أو إلى الشعر . ومن الاهتمام ما هو طبيعى ، وهو منه ما هو غير طبيعى ، فإذا لم تجد فى نفسك الاهتمام الطبيعى نحو شىء من الأشياء تريد أن تتعلمه ، فعليك أن « تخلق » هذا الاهتمام فتضمن بذلك سرعة الحفظ وبطء النسيان .

وللانفعالات أثر فى الحفظ وتثبيته ونسيانه أو عدم نسيانه . فالانفعالات السارة التى تبعث البهجة وتشيع الفرح تساعد على سرعة الحفظ ، على حين أن الانفعالات المؤلمة التى تؤدى إلى الضيق والتبرم تمنع الحفظ . ويلاحظ أن الانفعال إذا كان شديداً ألقى ضوءاً على ما يحفظ فلا ينسى . ولكن الخوف إذا بلغ حد الرعب أحدث ما يشبه التوقف والشلل فتمحى الأشياء التى كانت مصدر الخوف من صفحة الذهن . ولا يساعد الضرب على التعلم على عكس ما يتصور كثير من الناس ، لأن الضرب يؤلم حين وقوعه ويكون مصدر خوف للطفل قبل توقيعه ، وإذا كان الضرب شديداً لا يتعلم الطفل شيئاً ، وإذا تعلم لم يثبت مما يتعلمه شىء فى مستقبل حياته . ويعالج التعلم بالعقاب والثواب ، وقد اتضح من التجارب النفسانية أن التعلم بطريق الثواب أشد ثباتاً من العقاب على الأخطاء . مهما يكن من شىء فالعقاب لا بد منه لأنه شىء طبيعى ، كما يمسك الطفل النار فتحرق يده فيتعلم الحذر منها والابتعاد منها ، ولا ينسى لسعتها .

ويتعلم الناس بالمدح والذم ، أما الثناء فهو من أعظم البواعث على سرعة الحفظ ، وأنت لا تنسى الشخص الذى يثنى عليك ، وتتعلق بالأمور التى تجلب لك المدح . وقد أجرى

بعض العلماء تجربة على ١٠٦ من التلميذات لبيان أثر المدح والذم فى الحث على العمل العقلى ، فأعطاهن عدداً من المسائل الحسابية ليرى كم تحل كل تلميذة فى ربع ساعة . وراقبهن خلال خمسة أيام ، فى كل يوم مجموعة جديدة من المسائل . وقسم التلميذات أربع مجموعات الأولى يثنى على عملها سواء أحسن أم لم يحسن العمل ، والثانية تؤنب علانية أمام الفصل على ما ارتكبت كل واحدة من خطأ ، على حين تمتدح المجموعة الأولى ويثنى عليها الثناء الجميل . ومجموعة ثالثة تركت وشأنها فى تجاهل ، لم تؤنب أى تلميذة منها أو يثنى عليها ، ولكنهن كن يشهدن المدح والذم للأخريات . أما المجموعة الرابعة فوضعت فى فصل على حدتها ، ولم يمتدح عملها أو يذم ، ولم تشهد ما يفعله الأخريات . وكانت النتيجة بحسب مقدار العمل والتقدم فيه على هذا الترتيب : الأولى الممدوحة ، والثانية المؤنبة ، والثالثة المتجاهلة ، والرابعة المنعزلة ، كما يتضح من الرسم البيانى .

وللاستعداد الفسيولوجى مدخل عظيم فى المعاونة على الحفظ أو إعاقته ، ولذلك تختلف ساعات النهار وأوقات الليل اختلافاً كبيراً باختلاف هذه الاستعدادات . غير أن نتائج المشاهدات دلت على أن الاختلاف فردى بحت لا يخضع لقانون عام .



أعرف قوماً يطيب لهم الحفظ عند الفجر ، وآخرين فى أول الليل وهكذا . ويختلف الأمر باختلاف الحالة الصحية أيضاً وبخاصة سوء الهضم الذى يؤدى إلى سوء المزاج عموماً .

وقد أجرى العلماء تجارب عدة على الحفظ اللغوى ، كالألفاظ ، والنثر ، والشعر ، وأثبتوا أن ما يحفظ عن طريق القراءة الصامتة والعالية ، أى عن طريق البصر والسمع أفضل من الصامت فقط أو المسموع فقط . ويجد بعض الأفراد عسراً فى فهم الأشياء إذا قرءوا بصوت عال ، ويفضلون القراءة الصامتة . وإذا كتب الإنسان ما يريد حفظه كان ذلك أدعى إلى الثبات .

وقراءة المحفوظات موقعة منغومة مما يساعد على الحفظ ، ولذلك كان حفظ الشعر لأنه موزون أيسر من حفظ النثر ، وحفظ القصائد التى تنشد وتغنى أشد يسراً . ولهذا السبب نظم القدماء العلوم فى أراجيز مثل ألفية ابن مالك فى النحو ، وأرجوزة ابن سينا فى الطب . وإذا تأملت طفلا فى الخامسة تجده يردد ما يسمع فى البيت أو المدرسة منغوماً .

وهناك طرق تساعد على الاقتصاد فى الزمن عند الحفظ ، وهى الطريقة الكلية ، والتكرار الموزع على فترات طويلة ، والتسميع .

فالطريقة الكلية أن تقرأ القصيدة بأكملها لا بيتاً بيتاً أو مجموعات صغيرة من عدة أبيات ، لأن المعنى ينساب فى الكل ويربط جميع الأجزاء . ولذلك يلاحظ أن الطالب الذى يحفظ متبعاً الطريقة الجزئية يقف عند آخر كل جزء ويحتاج إلى من يذكره بأول كلمة فى الجزء التالى . ويحسن بالطلبة الذين يستذكرون دروسهم أن يقرأوا الكتاب كله دفعة واحدة ، ثم يحفظون الفصول فصلا فصلا ، لا صفحة صفحة .

وإذا احتاج الأمر إلى تكرار ما تحفظ عدة مرات ، فالأفضل أن توزع هذه المرات على فترات طويلة ، فالأجدى أن تقرأ القصيدة التى تريد حفظها مرة كل يوم لمدة سبعة أيام ،

من أن تقرأها سبع مرات فى ليلة واحدة . ومن الطلبة مَنْ ينقطع طول العام عن الدرس والحفظ اعتماداً على الاستذكار قبل الامتحان مباشرة فيحبس نفسه شهراً فى البيت يعيد فيه دروسه ، فإذا جاء يوم الامتحان وجد أنه قد نسي . والعلة فى ذلك أن الفترة التى قضاها فى الحفظ قليلة .

وفضيلة التسميع على مجرد القراءة ترجع إلى الاعتماد على الذاكرة ، وإرادة الحفظ ، هذا إلى معرفة مقدار ما حفظه من يسمع فيحثه ذلك على زيادة الحفظ ، إلى جانب أن مرة التسميع تعد من مرات التكرار .

فإذا اتبع المرء الطرق القويمة فى الحفظ كان ذلك أدعى إلى الثبات وأبعد عن النسيان .

خط النسيان

رأيتَ أن خط التعلم يسير صاعداً ، وسوف نبين لك أن خط النسيان علَى العكس يتجه هابطاً .

وهذا الخط البيانى الذى نحدثك عنه يتعلق بالنسيان الطبيعى ، أما النسيان الشاذ ، أو أمراض الذاكرة ، فهذا ما نرجيء الحديث عنه إلى فصل آخر .

وكما أن التعلم أنواع فكذلك النسيان ، فقد فرقنا بين ذاكرة العادة كالسباحة وركوب الدراجة ولعب البلياردو وقيادة السيارة والضرب على الآلة الكاتبة، وبين ذاكرة المعرفة أو الذاكرة اللفظية مثل حفظ سور من القرآن الكريم أو قصائد من الشعر أو جدول الضرب فى الحساب وغير ذلك ؛ وليس نسيان السباحة مثل نسيان سورة قرآنية . ولو انقطعت عن ركوب الدراجة عشرين عاماً وجربت ركوبها بعد ذلك لوجدت أنك لم تنس تلك الخبرة التى اكتسبتها أيام الصبا والشباب، ولكنك إذا عدت عشرين عاماً إلى الوراء تسترجع قصيدة لامرىء القيس كنت تحفظها أيام الطلب لم يجر على لسانك من أبياتها إلا البيت أو البيتان ، أو شطرة من بيت .

هل يجرى النسيان طبقاً لقانون ؟ وهل يكون النسيان كاملا ؟ وما هى عوامل النسيان ؟

وقد اختلف العلماء فى أمر النسيان ، فذهب بعضهم إلى أن كل ما يدخل فى خبرة المر ويتأثر به لا يزول أبداً ولا يمحى ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن الإنسان لا يمكن أن يحتفظ بكل شىء ، وقال بعضهم الثالث إن الأمور التى سبق حفظها حفظاً جيداً وثبتت مع التكرار هى التى لا تنسى ويمكن استرجاعها فى ظروف خاصة ، مثل حالات الهذيان ، أو التنويم المغناطيسى . وقد روى عن شخص تكلم بلغة أجنبية كان قد تعلمها وهو فى سن الثالثة ونسيها تماماً . ويقول « تين » فى كتابه « الذكاء » ما فحواه : لا يمكن معرفة حدود هذه الذكريات القديمة ، ولا بد أن نسلم بأن أى إحساس مهما يكن عابراً تافها باهتاً له القدرة على الظهور دون أن يفقد منه شىء .

روى أبركرومبى فى كتابه عن « القوة العقلية » القصة التالية قال : أصيبت سيدة بمرض مزمن فنقلت من لندن إلى الريف ، وأحضروا إليها ذات يوم طفلتها ولم تكن تتكلم بعد ، حيث مكثت معها فترة قليلة ثم أعادوها إلى المدينة . وتوفيت السيدة بعد أيام ، وكبرت طفلتها دون أن تذكر شيئاً عن

أمها . وأتيحت لها فرصة زيارة الحجرة التى توفيت أمها فيها . فلما دخلت الغرفة ارتعشت مع أنها لا تعرفها . فلما سئلت عن علة انفعالها أجابت : إنى أحس إحساساً واضحاً كأنى جئت من قبل إلى هذه الحجرة ، وكان فى هذا الركن امرأة راقدة ، يبدو أنها كانت مريضة جداً ، وانعطفت نحوى وكانت تبكى » .

وشبيه بذلك ما رواه كاربنتر فى كتابه « الفسيولوجيا العقلية » قال : ذهب رجل له مزاج فنان مع بعض أصدقائه فى رحلة على مقربة من قصر الكونت دى سوسكس الذى لا يذكر أنه زاره من قبل . فلما اقترب من الباب الكبير أحس إحساساً شديداً بأنه سبقت له رؤيته ، بل تذكر كذلك قوماً يركبون حميراً وآخرين يقفون إلى جوارها . فسأل أمه عن حقيقة الحال ، فأخبرته أنه وهو طفل يبلغ ستة عشر شهراً ذهب إلى ذلك المكان على ظهر حمار ، وأنه بقى بالباب مع الحمير والخدم على حين دخل الآخرون القصر يتناولون الطعام .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض علماء النفس الذين يدينون بمذهب اللاشعور وأثره فى الحياة النفسية يزعمون أن أن الذكريات التى يخيل إلينا أنها قد انمحت فى الظاهر

ولا يمكن استرجاعها ، لا تزال موجودة فى اللاشعور تعمل وتؤثر وتحرك صاحبها . وهؤلاء العلماء يفترضون أن كل ما يكسب المرء يظل باقياً فى حالة من الكمون .

ومن ناحية أخرى يضطر بعض العلماء إلى القول بوجود النسيان وضرورته . فهذا تين Taine الذى افترض من قبل الذكر الكامل يقول فى مكان آخر : إننا إذا وازنا بين الإحساسات المختلفة والصور المتباينة والمعانى المتعددة لوجدنا أن نزوعها إلى الذكر ليس بمنزلة واحدة ، إذ ينمحى كثير منها ولا تظهر إلى آخر الحياة . مثال ذلك أنى ذهبت أول أمس لشراء بعض الحاجيات من السوق فى باريس ورأيت فى الطريق مئات من الوجوه الجديدة لا أذكر أى وجه منها .

ويقول دلبيف Delbœuf فى مقالة عن النوم والأحلام فى المجلة الفلسفية . « هناك بعض الحق فى الرأى القائل بأن الذاكرة لا تصاب بالتعب فحسب بل تمحى أيضاً . وإذا لم تطرد إحدى الذكريات صاحبتها ، فهى على الأقل تعوقها عن الظهور ، بحيث يمكن القول بأن المخ يبلغ حداً من التشبع عند الفرد » .

هذه الفكرة نعنى « التشبع » هى التى عول عليها

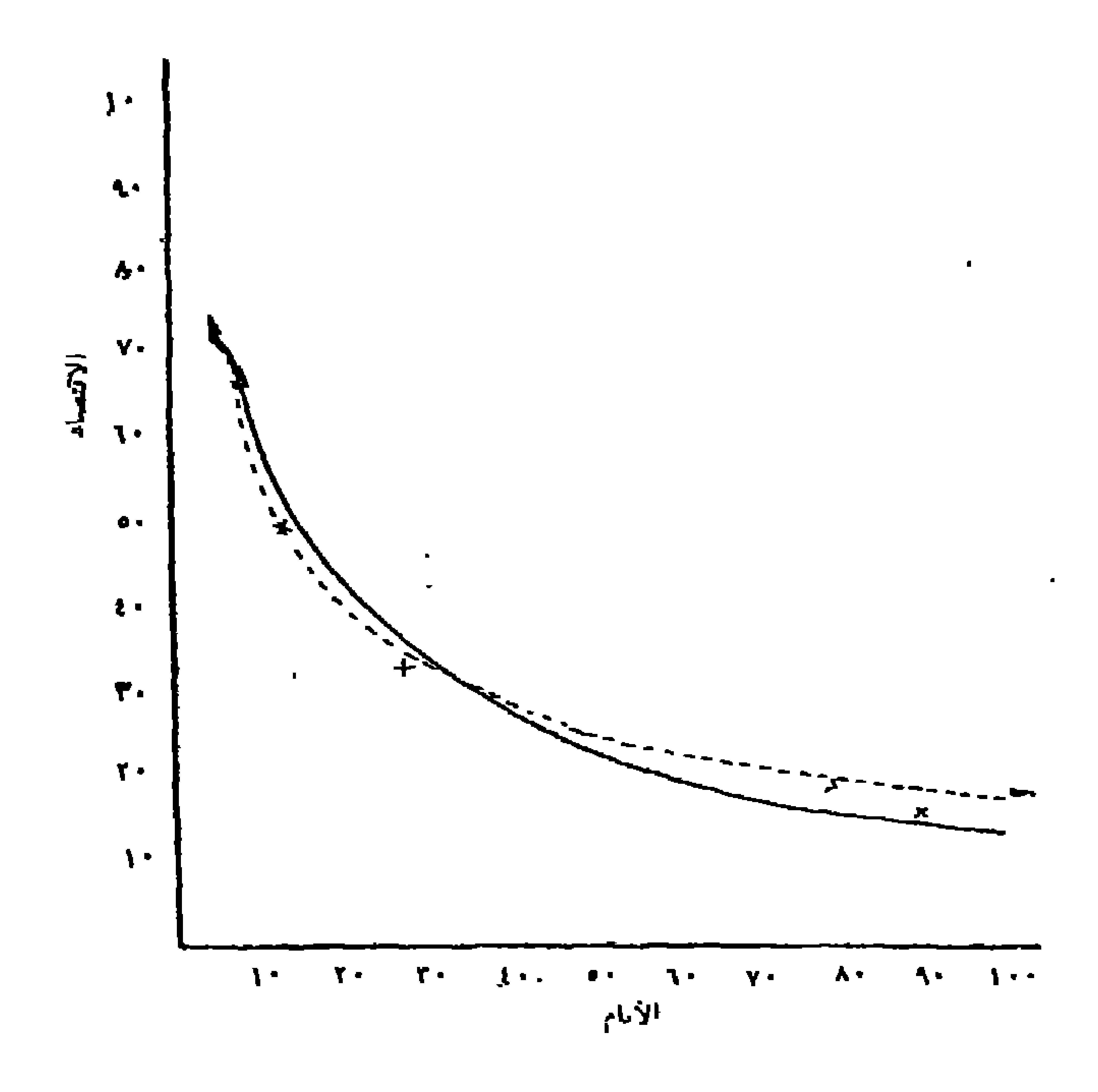
« ريبو » فى بيان أهمية النسيان ، إذ بفضله يتيسر الاحتفاظ بما يكتسبه المرء فترة طويلة من الزمن . ومن أجل ذلك رأى بعض العلماء أن النسيان وظيفة حيوية إيجابية ، وأنه نشاط ذهنى نافع فى حذف ما لا يحتاجه العقل وما لا أهميته له .

وإذا أبعدنا هذه النظريات كلها جانباً رأينا أن النسيان حقيقة لا ريب فيها .

وقد اتجه بعض العلماء فى بحثهم هذا الموضوع اتجاهاً تجريبياً ، وخرجوا بقانون النسيان الذى صاغوه صياغة رياضية خاصة ، ورسموه فى خط بيانى سموه خط النسيان . والفضل فى هذه المباحث للعالم النفسانى إبنجهاوس ، وتبعه فى ذلك كثيرون .

واعلم أن خط النسيان يتذبذب كما هى الحال فى خط التعلم . والواقع أننا لا ينبغى الفصل بين الحفظ والنسيان ، إذ كلاهما مكمل للآخر ، أو قل إن التعلم صراع بين الحفظ الذى يتميز بالممارسة والنسيان الذى يزيد بالترك . ولذلك قيل فى الأمثال « آفة النسيان الترك » . وتتضح هذه الحقيقة من الرسم البيانى الآتى .

وتجرى التجارب على النسيان بأن يحفظ عدد من الطلبة شيئاً معيناً مثل بعض الألفاظ ، ثم يختبرون بعد ذلك ،



البعض بعد ساعة ، والبعض الآخر بعد يوم ، والبعض الثالث بعد يومين وهكذا . وقد دلت التجارب على أن النسيان يكون سريعاً جداً بعد الحفظ مباشرة . وأول من أجرى هذهِ التجارب هو هرمان إبنجهاوس الذى جرب على نفسه

أن يحفظ مقاطع لا معنى لها ، ثم اختبر نفسه فى اليوم التالى فوجد أنه لم يسترجع إلا ثلثها تقريباً ، واستمر النسيان بعد ذلك ولكن ببطء .

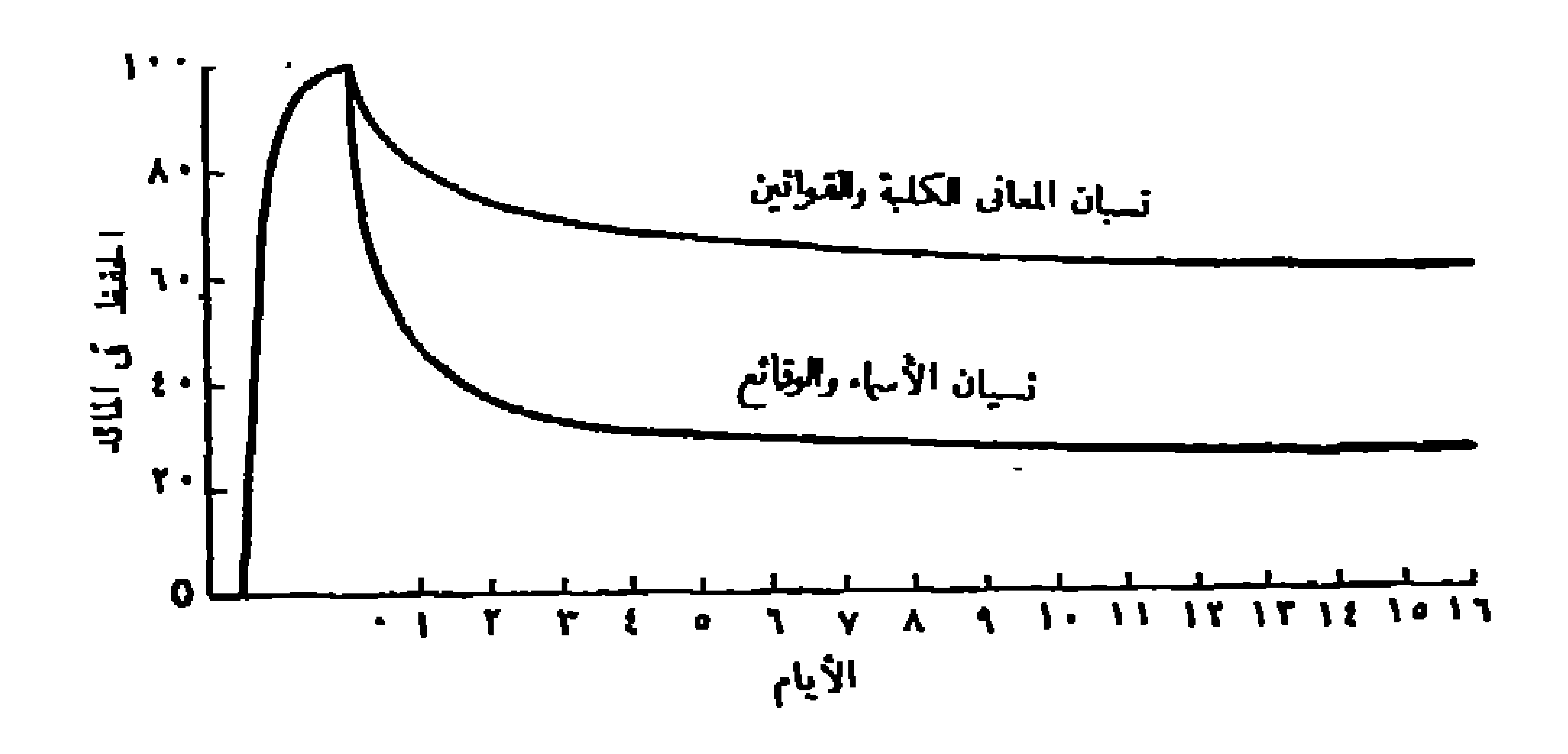
على أن قيمة تجارب إبنجهاوس ترجع إثبات هذه الحقيقة وهى أن ما سبق اكتسابه ونسى يمكن أن يحيا باكتساب جديد مع الاقتصاد فى الزمن . وهذا دليل على بقاء أثر ما حفظ . مثال ذلك أنه إذا لزم تكرار مقاطع لا معنى لها ٢٠ مرة لحفظها فإنه يكفى إذا نسيت أن تكرر ٥ مرات ، أى أن نسبة الاقتصاد هى ١٥ إلى ٢٠ أى ٧٥ ٪ ، وتحتاج بعد ذلك إلى اقتصاد ١٠ مرات أى ٥٠ ٪ وهكذا .

ويتضح بمقتضى هذه التجارب أن النسيان أمر طبيعى وتلقائى ومنتظم ، ولو أن بعض العلماء من أصحاب التحليل النفسانى ، وعلى رأسهم فرويد ، يرون غير هذا الرأى فيذهبون إلى أن النسيان راجع إلى « الكبت » وإلى الرغبة اللاشعورية فى هذا النسيان .

وقد حسب كثير من العلماء فى تجاربهم على الاقتصاد فى الزمن واتجاه خط النسيان وطلعوا بنتائج متقاربة . وهذه إحدى التجارب :

الفترة بالساعة		نسبة الاقتصاد
٢٤ ساعة	(١ يوم)	٪ ٦٨,٩
٤٨ »	(٢ يومان)	٪ ٦٠,٩
١٤٤ »	(٦ أيام)	٪ ٤٩,٣
٣٤٦ »	(١٤ يوماً)	٪ ٤١,
٥٠٤ »	(٢١ يوماً)	٪ ٣٧,٨

وهذا هو الخط البيانى للنسيان .



ويصاغ هذا القانون فى معادلة جبرية ، فإذا رمزنا للزمن بحرف م ، وبالمادة التى تحفظ بحرف ى ، وبمقدار الاقتصاد بحرف ق كانت المعادلة كما يأتى :

ق = ء / لوغاريتم م

هذا القانون عام ، ولكننا إذا نظرنا إلى الأفراد نجد أنهم يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، وكذلك إذا نظرنا إلى طبيعة الأشياء التى حفظت ثم تنسى فيما بعد :

فالأعمال الآلية أعظم ثباتاً كما توضح التجارب الآتية :

تعلم شخص الآلة الكاتبة حتى بلغ من المهارة أن يكتب ١١٠٠ كلمة فى الساعة بعد تدريب استمر ٤٨ يوماً . ثم انقطع عن الكتابة سنتين ، فاحتاج إلى عشرة أيام ليبلغ المستوى السابق ، أى باقتصاد قدره ٧٩ ٪

وروى سويفت Swift من علماء النفس أنه قضى ٤٢ يوماً فى تعلم قذف الكرة ، واحتاج إلى ١١ يوماً بعد ست سنوات ليسترجع ما سبق أن بلغه ، أى باقتصاد قدره ٧٤ ٪ .

أما الذاكرة اللفظية فلها شأن آخر ، لأن الألفاظ منها حروف ، ومنها مقاطع لا معنى لها ، ومنها أسماء أعلام ، ومنها أسماء أشياء ، ومنها أسماء كلية عامة ، ومنها صفات ، ومنها ظروف وحروف جر تصل الكلام بعضه ببعضه الآخر ، ومنها أفعال ، وهذه كلها تتبع قانوناً فى نسيانها وضعه « ريبو »

فى كتابه « أمراض الذاكرة » ، أو أنه وضع قانونين الأول خاص بتعلم اللغة إطلاقاً لغة الكلام العقلى، ولغة الانفعالات، ولغة الإشارة ، والثانى خاص بلغة الكلام العقلى .

وطبقاً للقانون الأول تنسى اللغة العقلية أولا ، ثم اللغة الانفعالية كعبارات التعجب ثانياً ، ثم لغة الإشارة ثالثاً .

أما فيما يختص باللغة العقلية فإنها تخضع فى نسيانها لهذا القانون ، وهو الاتجاه من الخاص إلى العام ، كما تعلم الطفل فهو يبدأ بالخاص وينتهى بالعام ، ويسير النسيان بالعكس ، فيبدأ بأسماء الأشخاص أو الأعلام ، ثم بأسماء المحسوسات ، ثم بالصفات ثم بالأفعال . وتستطيع أن تفسر بهذا القانون العلة فى نسيان أسماء الأصدقاء مع الاحتفاظ بصورهم ، فكثيراً ما تلتقى بشخص تذكره جيداً وتذكر عمله ، ولكنك تنسى اسمه . أما فرويد فله فى نسيان الأسماء تعليل آخر .

ويعتمد برجسون على هذا القانون فى البرهنة على أن الذاكرة لا تنطبع فى المخ ، لأن الألفاظ إذا كانت قد حفرت فى المخ فلماذا تختفى أسماء الأعلام دون الأفعال . أما الأفعال فإنها تدل على العمل ، وأن العمل يمكن محاكاته فيكتسب عن هذا الطريق ، وبذلك تدخل الأفعال فى

الأعمال الآلية ، وأن الصفات تكون عملية عن طريق الأفعال التى تحتويها ، أما الأسماء فتحتاج إلى وساطة الصفات ثم الأفعال ، فكلما ابتعدنا عن الأفعال إلى الأسماء ابتعدنا عن الأعمال التى يمكن تقليدها بواسطة الجسم . فهذه هى خلاصة تفسير برجسون لنسيان الأسماء والأفعال .

جملة القول إذا كانت الحياة العقلية تشمل المحسوسات والصور الذهنية والمجردات التى تدل على المحسوسات كالرموز والأرقام والأسماء الشخصية والمعانى الكلية والقوانين العامة ، مثل قانون العرض والطلب فى الاقتصاد وما إلى ذلك فإنها آخر ما تنسى ، ويوضح هذا الخط البيانى نسبة النسيان فى الأسماء والوقائع وفى المعانى الكلية والقوانين العامة .

ومن جملة القوانين التى أوضحتها تجارب علم النفس الخاصة بالتذكر والنسيان ، أن ما يحفظ لأول مرة يغيب فى فى هوة من النسيان تمتد من يوم إلى ثلاثة أيام باختلاف الأفراد ، ثم تذكر بعد ذلك . لنفرض أنك حفظت قصيدة جديدة من الشعر لأول مرة ، ثم أردت استرجاعها بعد يومين فإنك لا تجد إلى تذكرها سبيلا ، وفى اليوم الثالث تذكرها . وتسمى هذه المدة هوة أو فترة النسيان . ولذلك كان من

الخطأ الشديد أن يستذكر الطالب درسه الذى سوف يمتحن فيه ليلة الامتحان . ويبدو أن العقل يعمل لاشعورياً فيربط ما تحصله بجملة ما يحتويه الذهن ويحتاج إلى هذه الفترة حتى يستقر ما يكتسبه .

وقد أجمع المحدثون على أن السبب الأول فى النسيان هو اختلاط الحفظ ، أو تدخل شىء جديد فيما تحفظه أو تدركه . فيعطل أحدهما الآخر . فلو أن تاجراً تقدم إليه شخص اسمه حسن عبد المجيد ، وفى الوقت نفسه آخر اسمه حسين كامل ، وثالث اسمه محمود عبد الواحد ، ثم أراد بعد شهر أن يذكر اسم الأول لنسيه ، أو على الأقل إذا كانت ذاكرته جيدة لقال حسين عبد المجيد بدلا من حسن ، أو حسين عبد الواحد ، فجعل يخلط بينهم . والأغلب أن التداخل يؤدى إلى التوقف والتعطيل . ويلاحظ أن الطالب فى الفصل المدرسى إذا جلس يتحدث مع زميله لم يستطع أن يتذكر درس الأستاذ ، ولذلك ينبغى الهدوء التام ساعة إلقاء الدرس . وإذا استذكر الطالب دروسه فى المنزل بين ضجيج أهل الدار أو أهل الحى وجد صعوبة فى التذكر فيما بعد . وكيف يتسنى للطالب الحفظ على حين يعلو صوت المذياع طول الليل وخاصة فى الأحياء الوطنية ، وهى

أحياء شديدة الازدحام بالسكان ولا يخلو الأمر من وفاة أو زفاف فتقام ليالى المأتم أو الزفاف فى ضجة شديدة ، حتى لقد كثرت الشكوى وأراد بعض أولى الأمر منع استعمال المذياع بسلطة القانون . وأفضل من ذلك أن يقطن المرء فى الضواحى حيث يضمن الهدوء فينصرف إلى عمله العقلى دون أن يعوقه عائق .

وليس من الضرورى أن يكون العائق ساعة الحفظ ، بل قد يكون بعد الحفظ ، وقد يكون مستمراً ، فى صورة الهموم التى تنتاب المرء . وانظر إلى شخص قد توفى ابنه ، أو هو طريح الفراش لا يجد له علاجاً ، أو إلى تاجر قد تراكمت عليه الديون ، تجده شارد الذهن ينسى كل شىء حتى الأعمال الآلية فإذا به يغفل عن طعامه. فالهموم من المعوقات التى تتدخل فى المحفوظات الذهنية فتعطلها .

ويسمى هذا التدخل فى الحفظ بالاصطلاح العلمى « المانع المعاكس » Retroactive inhibition

فإذا شاء أحدنا أن يذكر شيئاً ولاينساه فعليه أن يحفظه وحده . وأن ينقطع له ، ولا يسمح لشىء آخر أن يعوق ما يحفظه.

أما العامل الثانى فى الذكر والنسيان فهو الراحة الجسمية أو التعب والإجهاد . وقد أثبتت التجارب أن التذكر يكون

أفضل بعد « النوم » . ولذلك نصحوا بأن ينام المرء بعد الحفظ حتى يثبت ما يحفظه . ويلجأ بعض الطلبة إلى السهر طول ليلة الامتحان فإذا به لا يستطيع أن يتذكر ما حفظه ، مع أنه لو نام نوماً كافياً ما نسى . ويبدو أن المعلومات تستقر فى الذهن لاشعورياً ، وأن العقل يعمل فى اللاشعور ، بدليل أن الذى يفكر فى مسألة هندسية مثلا يجد حلها فجأة دون أن يفكر فيها بوعى . وفى حالات الجولان النومى Somnambulisme ينهض الشخص من فراشه ويجلس إلى مكتبه يعمل ويؤلف ثم يعود إلى فراشه ثانياً ، حتى إذا استيقظ لم يذكر مما فعله شيئاً . وليس هذا غريباً لأن بعض الناس يتكلمون وهم نيام ، فإذا سئلوا بعد اليقظة أنكروا أنهم كانوا يتكلمون . واعتماداً على هذه الحقيقة ، نعنى وجود المعلومات فى اللاشعور وصعوبة تذكرها فى حالة اليقظة ، يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسى إذا أرادوا معرفة بعض الحوادث التى نسيها المريض. هذا ويعلل بعض معرفة العلماء تذكر المرء الماضى فى حالة التنويم المغناطيسى بأنه يكون منقطعاً انقطاعاً تاماً إلى هذا التذكر ، لا يشغله شىء آخر ، فضلا عن ارتياحه . وليس من الضرورى أن يلجأ العالم النفسانى إلى التنويم المغناطيسى فى استحضار الذكريات الماضية ، إذ يكفى

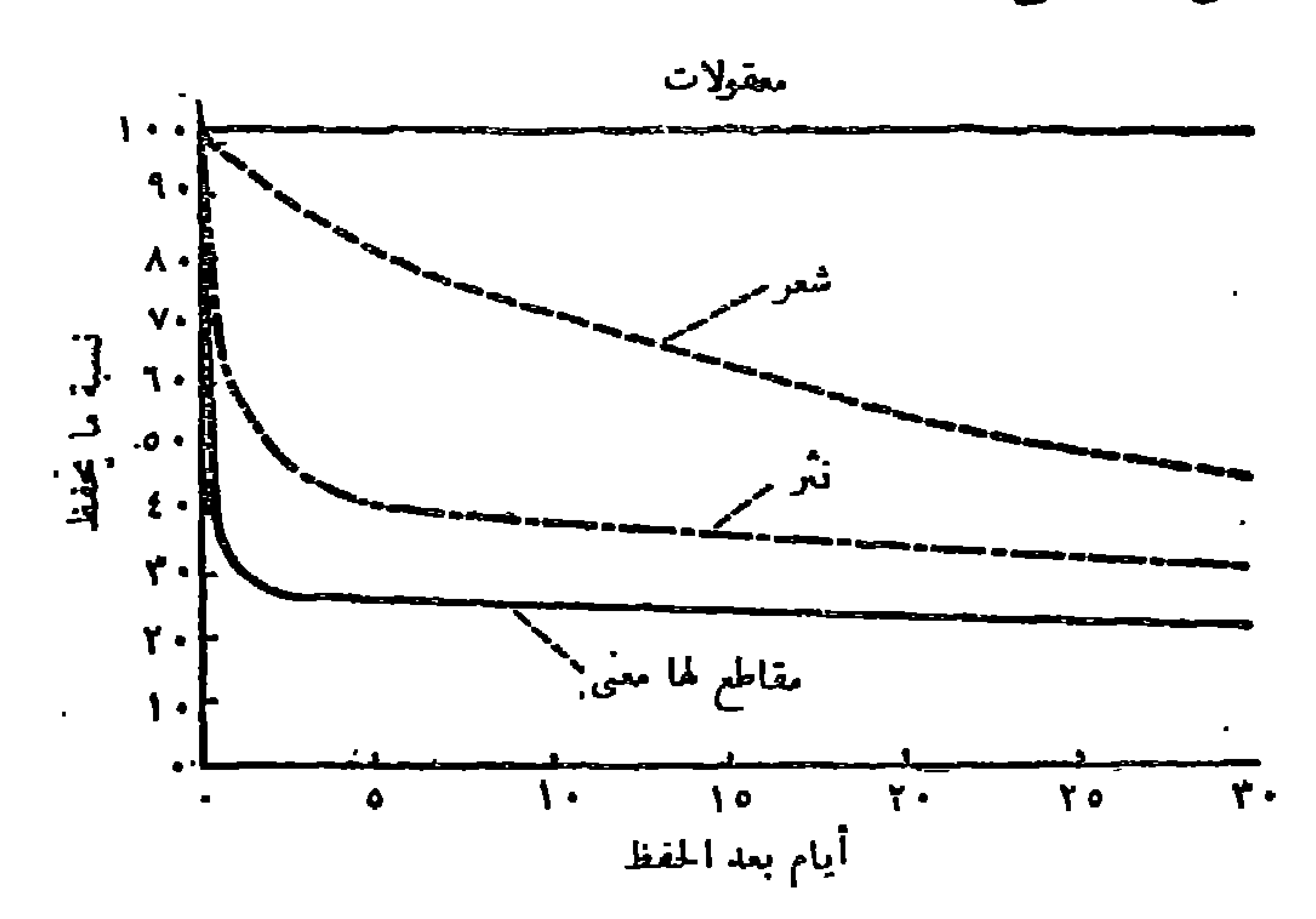
أن يُجلس المريض جلسة مريحة فى مكان هادىء وأن يدعه يتكلم بطريقة « التداعى الحر » . وكثيراً ما يتوقف المريض لأن فى قرارة نفسه أموراً لا يريد إظهارها ، أو يرغب فى كبتها ونسيانها . وبذلك نرجع إلى القاعدة الأولى فى النسيان ، وهى وجود الموانع الحائلة دون التذكر .

وقد فطن القدماء بالتجربة الشخصية إلى ما فطن إليه العلماء المحدثون بالتجارب العلمية ، فهذا أبو تمام يوصى البحترى فى صدر وصيته بالقاعدتين اللتين ذكرناهما وهما الابتعاد عن الشواغل والنوم للراحة . وهذه هى الوصية بألفاظها كما رواها البحترى قال : « كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفو من الغموم . واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه وقت السحر ، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحه وقسطها من النوم . . . »

ووصية أبى تمام وصية خبير بالحفظ والرواية عليم بأسباب النسيان ، وكان فيما يقال جيد الذاكرة يحفظ الشعر

إذا سمعه مرة واحدة . فقد اتصل البحترى بأبى تمام وسعى إليه فى حمص فأنشده قصيدة حفظها أبو تمام لأول مرة ، ادعاها ليكدر على البحترى خاطره أو ليعاقبه على تقحمه عليه مواطن الإنشاد ، ثم عاد فأفهمه أنه يداعبه .

ويتضح من ذلك أن حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر ، وليس يعلو عليه إلا حفظ المعقولات التى يدركها الإنسان ببصيرة العقل لا عن محاولة وتعثر أو تقليد ومحاكاة . وهذا هو خط النسيان الذى رسمه جلفورد Guilford أحد علماء النفس يبين فيه نسبة نسيان المعقولات والشعر والنثر والمقاطع التى لا معنى لها .



أمراض التعرف

كنت أركب ترام المترو عائداً إلى مصر الجديدة ذات يوم ، وجلس فى المعقد أمامى شخص لم أتمالك من تحيته ، لأنه فضلا عن زمالته فى المدرسة الثانوية فهو صديقى ، وهو يعمل محامياً مشهوراً. ولم يرد هذا الشخص التحية بأحسن منها أو بمثلها ، ولكنه ردها رد متجاهل كأنه لا يعرفنى . فعجبت وتأملته طويلا ، إنه هو هو هيئة وقواماً وشارباً ، فقلت فى نفسى لعله شخص قريب الشبه منه ، ولكنى كلما نظرت إليه لم أجد بداً من الجزم بأنه صديقى الذى أعرفه ، وأنكرت إنكاره معرفتى ، وأردت التأكد من هذه المسألة فقلت له له : ألست فلاناً ؟ فأجاب كلا ، فقلت له : ألست محامياً ؟ فأجاب إنه موظف بإحدى الوزارات .

وكثيراً ما يحدث من الخطأ فى التعرف حوادث غير غير محمودة ، فهناك أشخاص ترتفع بينهم الكلفة إلى حد التبسط فإذا التقى أحدهم بصاحبه احتضنه وقبله ، أو إلى حد الحذر فيضربه أو يشتمه مثلا . فانظر حرج الموقف حين يفاجأ شخص بمن يلكمه أو يزغده . وروى لى صديق

هذه النادرة العجيبة قال : كنت أسهر مع بعض أصدقائى فى مقهى حتى منتصف الليل ، ولأمر ما أخرجت مفتاح منزلى فأخذه منى أحدهم ونسيت أن أسترده منه ، ثم انصرفنا ، وتحسست المفتاح فلم أجده فعرفت أنه مع صاحبى الذى انصرف وكان أعزب زرت منزله مرة واحدة قبل ذلك بعام ، فرجعت مع صاحبى ناحية ذلك المنزل ، ولكننا دخلنا المنزل المجاور الذى كان يشبهه ، وصعدنا الدور الثالث ونقرنا على الباب ، فخرجت لنا خادمة صغيرة ، فقلنا لها : « هل سيدك محمد أفندى موجود ؟ » فقالت : « نعم تفضلوا » فدخلنا إلى صالة صغيرة فيها مائدة عليها طعام ، ولم تكن بيننا وبين صديقنا كلفة ، ورأينا على المائدة طبقاً فأكلنا من الطعام الذى فيه ، ولما غاب صديقنا عن الحضور صحنا به وهممنا أن ندخل عليه حجرة النوم ، وإذا بشخص آخر يخرج وزوجته تنادى به من الداخل أن يرى رأيه فى هؤلاء الأصدقاء الذين يطرقون بابه بعد منتصف الليل . وأصر الرجل أن يصحبنا إلى قسم البوليس للتهجم عليه .

وقد تدخل بيتاً فتحس كأنك تعرف هذا البيت وتعرف حجراته وتعرف أثاثه ، وهذا هو « التذكر العكسى » Paramnesia ، وينشأ فى الغالب من « التشابه » بين المكان

الذى تعرفه وبين المكان الذى تراه ، وينشأ عن ذلك الشعور « بالألفة » .

والتعرف مكمل للتذكر ولا يعده العلماء مرحلة أساسية منه ، إذا كانت مراحل الذاكرة خمس ، الحفظ والوعى والاسترجاع ثم التعرف والتحديد . ولنضرب مثلا يبين هذه هذه المراحل . طالب فى المدارس الابتدائية يعلمه المدرس أن دمشق عاصمة سوريا ، فيحفظ الطالب هذه الحقيقة ، وتستقر فى ذهنه وتظل باقية فى صفحة عقله دون أن ينساها ، وهذا هو الوعى . وعند الامتحان يجيب عن السؤال الآتى : ما عاصمة سوريا ؟ إنها دمشق ، وهذا هو الاسترجاع . أما إذا جاء السؤال على النحو الآتى : هل عاصمة سوريا بغداد أو دمشق أو بيروت ، فأجاب إنها دمشق ، فهذا تعرف ، لأنه لا يسترجع اللفظ بل يتعرف عليه . أما التحديد فهو وضع ما تتذكره فى المكان أو الزمان ، والتحديد مكمل أيضاً للذاكرة .

وقد تعقد بعض الامتحانات المدرسية على أساس التعرف لا الاسترجاع كما بينا فى السؤال السابق ، تسهيلا للطلبة .

وأساس التعرف الحفظ السابق ، لأنك تستعرض ذكرياتك وتطبقها على هذا الشىء الذى تراه أو تسمعه . فإذا حدث خطأ فى التعرف كالأمثلة التى ضربناها ، فعلة

ذلك ترجع إلى أمور كثيرة ، إما من الحفظ ، وإما من عوامل أخرى سوف نذكرها . وقبل بيان هذه العوامل يجدر تمييز أنواع التعرف ، وهى ترتد إلى نوعين أساسيين ، تعرف الألفة ، وتعرف الحكم ، فالأول تعرف وجدانى ، والثانى عقلى .

ومن المشاهد أن الإنسان ، والحيوان كذلك ، يحس بإزاء الأشياء التى تحيطه فى البيئة التى يوجد فيها بأحد شعورين إما ائتلاف وإما نفور وغرابة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور غامضاً لا يستبين فيه المرء أى ذكرى قديمة واضحة ، ويحدث ذلك عندما نسير فى الشوارع التى ألفناها والأماكن التى تعودنا الاختلاف إليها . ومعظم الحيوانات تجد لذه فى تمضية الوقت فى الأماكن المألوفة لها ، ومرجع ذلك إلى شعورها « بالأمن » وابتعادها عن الخطر الذى تريد أن تتجنبه . والحق أن الخوف من أهم العوامل فى النسيان ، كما أنه من العوامل التى تبعث على الابتعاد عن الأشياء وتجنبها . ونسيانها أحد مظاهر الابتعاد عنها . وإذا لاحظنا الطفل الصغير الذى يبلغ من العمر ثلاثة أشهر أو أربعة نجد أنه يتميز بهذا الشعور ، شعور الألفة الذى يجلب له الأمن والاطمئنان ، ولذلك يقبل على أمه أو أبيه أو خادمته ، ويشيح بوجهه عن

الغرباء ويفزع منهم . وليس ذلك تعرفاً عن حكم عقلى ، بل عن الصلة الآلية التى تشبه الأفعال الشرطية . ومن الألعاب التى يسر لها الأطفال كثيراً لعبة « الاختفاء » حين تخبئ منه لعبته أو تخفى عنه الشخص الذى يحبه ، فيبحث عنه ويسر عند عودته ، وتنبسط له أسارير وجهه .

ومن الأمور التى تعد فى باب العجائب تعرف الكلاب على أصحابها بحاسة الشم . وتستطيع الكلاب البوليسية أن تتعرف على المجرمين إذا شمت آثار الجريمة. وهناك أبحاث قانونية كثيرة فى هذا الموضوع ، ولكن جمهرة المحاكم لا تأخذ بهذا الدليل ، ولا تجعله قاطعاً إذ قد يخطئ الكلب فى تعرفه . وإنما يستطيع الكلب أن يتعرف لأنه يحتفظ فى ذهنه بالصورة الشمية ويطبقها على الشخص الذى يجد فيه هذه الرائحة نفسها . ولكننا لا نملك القول بأن الكلب يميز الماضى ويعرفه ويطبق الموجود فى الحاضر على المحفوظ فى الماضى ، لأن هذه العملية هى تعرف الحكم الذى يختص الإنسان به .

فالشعور بالألفة شعور عام لا يغوص فيه صاحبه مع الماضى ، وهو يوازى الذاكرة الآلية ، أو ذاكرة العادة ، ويتصل أغلب الأمر بالأشياء والأماكن لا بالمعانى والألفاظ. وقد قيل إن التعرف على الأشياء هو التعامل وإياها ، وهذه

نظرية السلوكيين فى علم النفس . فإذا نظرتَ إلى فنجان عرفتَ أنه صالح أن يشرب فيه، وإلى قلم أن يكتب به، وهكذا .

أما تعرف الحكم فيحتاج إلى نظر فى الماضى ، على حين يستعرض تعرف الألفة الماضى . فنحن فى حياتنا اليومية نتعامل مع أشياء كثيرة يكفى أن ننظر إليها حتّى نقبل عليها أو ندبر عنها دون الرجوع إلى الصور الذهنية الماضية عنها . روى عن مرضى يعرفون كيف يصفون الأشياء إذا ذكرت أسماؤها ولا يتعرفون عليها إذا شاهدوها . وروى عن شخص أصبح يجهل الاتجاه فى شوارع بلدته التى نشأ فيها ، ومع ذلك فهو يعرف أن هذه الطرق شوارع وأن الأبنية الموجودة على جوانبها بيوت للسكنى . وأصبح لا يعرف زوجته وأولاده، ولكنه مع ذلك يعرف أن هذه امرأة وهؤلاء أطفال . من أجل ذلك أنكر برجسون بعد رواية هذه الأمثلة أنها تدل على « عمى نفسانى » أو على فقدان الذاكرة ، ولكنها دليل فقط على نوع من أنواع أمراض التعرف يرجع إلى اختلال العادة الآلية . ذلك أن الإنسان يتعرف على المدينة بأن يسير فى طرقاتها مرة بعد أخرى ، ثم يصبح سيره فى شوارعها آلياً ، ومن هنا ينشأ الشعور بالألفة .

وانظر إلى الأحوال التى نضطر فيها إلى الحكم عند التعرف ، أى استحضار الماضى وتطبيقه على الحاضر . عندما تضبط مسروقات أو يعثر رجل البوليس على طفل ضل الطريق ، ويذهب أصحاب المسروقات أو أهل الطفل للتعرف على هذه المسروقات أو هذا الطفل ، يرجع المرء إلى الذاكرة ، وبخاصة لأن رجال البرليس لا يكتفون بمجرد التعرف، بل يطالبون بذكر علامات مميزة .

كانت إحدي الفتيات تلعب فى حديقة عامة مع إخوتها فوقعت منها ساعة يد ، وعثر عليها أحد الصبية ممن كانوا يلعبون فى الحديقة، ولم يكن يعرف صاحبتها، ولكنه ظن أنها تكون لإحدي هذه الفتيات ، فذهب إلى منزلهن يعرض الساعة ، ولم تكن صاحبتها موجودة فى ذلك الوقت بل أختها الصغيرة التى تبلغ العاشرة من عمرها ، فلما سألها عن الساعة وعرضها عليها قالت إنها ليست ساعة أختها لأن ساعتها مربعة وهذه مستديرة ، لولا أن سمعت أمهن الحديث فتدخلت فى الأمر وعرفت الساعة . أما السبب الذى من أجله أخطأت الأخت الصغيرة فى التعرف على الساعة ، فهو أنها كانت تطمع أن يكون لها واحدة مثل أختها، فهى تنفس عليها وتحسدها وتود ألا يكون لها ساعة حتى تحرم منها كما أنها محرومة كذلك .

فهذا نسيان يرجع إلى تخيل صورة تخالف الصورة القديمة .

ويعلل برجسون أمراض التعرف بأمرين : الأول نسيان الصور الذهنية الماضية ، والثانى انحلال الرابطة التى تربط بين تلك الصور وبين غيرها . والواقع أن الذكريات الماضية لا تكون مفردة منعزلة بل يرتبط بعضها ببعضها الآخر ، إلى حد أن الفكرة التى تتكون عندنا عن شىء من الأشياء تتم شيئاً فشيئاً بعد إضافة صور عدة عن الشىء الواحد . فأنت تعرف زيداً من الناس لأنك رأيته فى أوضاع مختلفة وفى هيئات عدة ، فهو مرة جالس وأخرى قائم ، وتارة لابس وتارة غير لابس ، وفى حين باسم وفى حين آخر عابس ، ومع اختلاف هذه الهيئات كلها تعرفه وتميزه دون غيره . فأنت حين تتذكره ، أو حين تتعرف عليه ، لا تستحضر فى ذهنك صورة ماضية عنه بالذات . وكذلك الحال حين تنظر إلى شجرة فتقول هذه شجرة وحين تنظر إلى قطة فتقول هذه قطة وليست كلباً . وليس معنى ذلك أنك تستحضر فى ذهنك صورة قطة معينة بالذات أو صورة شجرة بالذات .

والذى يعين الإنسان على إدراك هذه المعانى الكلية أنه يخلع عليها ألفاظاً تتركز فيها ، على خلاف الحيوان غير الناطق.

واللفظة وعاء أو لباس للمعنى ، ولها شخصية مستمدة من شخصية الأشياء التى تدل عليها . ولكن الألفاظ أصوات ليست مادية كهذه الشجرة أو هذه القطة أو هذا الكلب . ومع ذلك فقد ظن قوم أن الألفاظ المنطوقة مادية ، وأنها تحضر فى صفحة الذهن كما تسجل الأصوات على صفحة الأسطوانة ثم تسمع بعد ذلك فى الجراموفون . وهذا تشبيه قديم ساد فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن برجسون وغيره اعترضوا عليه اعتراضات كثيرة ، فقالوا: إن كانت الألفاظ مسجلة على هذا النحو فلماذا تسقط لفظة واحدة من بين العبارة المحفوظة ، ولماذا تنسى لحظة ثم تظهر لحظة أخرى .

وكما يتعرف الإنسان على الأشياء المحسوسة وعلى الأماكن التى تحيطه فى البيئة التى يوجد فيها ، كذلك يتعرف على الألفاظ والمعانى التى تعرض عليه . كنت فى مجلس وجاء ذكر هذه الآية على سبيل الاستشهاد «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» فقلت هذا حديث شريف ، فقال صاحبى بل إنه آية قرآنية ، وأصر على رأيه ، وأصررت على رأيى . فلما عدت إلى منزلى راجعت المسألة فاتضح لى فساد تعرفى ، ووجدت أنه آية وليس حديثاً . وأخذت أحلل نفسى كيف

وقعت فى هذا النسيان ، فرأيت أنه يرجع إلى تخليط فى الحكم بين خصائص الأسلوب القرآنى وأسلوب الحديث النبوي . ومعظم أخطاء التعرف ناشئة من الخطأ فى الحكم مع ضعف الحفظ .

ولا ريب فى أن سوء الاكتساب وضعف الحفظ أول أسباب الخطأ فى التعرف . مثال ذلك أنى أذهب بين حين وآخر إلى الريف ، والتفت إلى هذه البيئة الجديدة فأرى فيها مجارى للمياه يسمون بعضها ترعاً وبعضها الآخر مصارف . فالترعة مجرى من الماء العذب الذي يستمد أصله من النيل وهى التى تروى الأرض . والمصرف مجرى من الماء يتسرب إليه الماء من الأرض بعد ريها ، وكلاهما مجرى من الماء . وقد يكون أحدهما مجاوراً للآخر ، كل ما فى الأمر أن المصرف أعمق من الترعة ، وأن جانب المصرف يبدو عليه بياض من آثار الملح . ومع ذلك فإنى لا أزال أخلط بينهما على حين أن الفلاح يتعرف عليهما بكل بساطة . فهذا الخطأ ناشئ عن ضعف العلم بحقيقة الترعة والمصرف . ويشبه موقفى من شئون الريف على وجه العموم موقف خادمة من الريف طلبت منها أن تحضر الكتاب الموضوع على المكتب فأحضرت بدلا منه كراسة . الحق ليس التمييز بين الترعة

والمصرف أمراً عسيراً يصعب اكتسابه ، ولكن المسألة ترجع إلى الميل والاهتمام أو إلى ما يذكره برجسون وهو "الانتباه" ، وعنده أن الاسترجاع ، وكذلك التعرف دورة تبدأ من الانتباه ثم الإدراك ثم التصور ثم الحفظ ثم الاسترجاع ثم التعرف .

وعقد ريبو فى كتابه «أمراض الذاكرة»(١) فصلا عن التعرف والتحديد . وهو يتوسع فى معنى التعرف ويجعله يشمل التحديد فى الزمان ، أي أن هذه الحادثة مثلا وقعت لنا فى وقت معين وفى مكان معين . والسبيل إلى ذلك أن العقل يتخذ من بعض الحوادث « نقط ارتكاز » ، يحدد الحوادث الأخرى بالنسبة لها . وهذا ما يفعله أولئك الذين يحفظون التاريخ ، بل التاريخ نفسه يعتمد على نقطة ارتكاز ، مثل التاريخ الميلادى يبدأ من ميلاد المسيح ، والهجرى من هجرة الرسول . ويتخذ العامة من بعض الحوادث المشهورة بدءاً للتاريخ ، مثل حرب عرابى ، أو الثورة المصرية وهكذا . وهذا ما يفعله كل فرد منا بالنسبة لحوادثه الخاصة ، فهو يتخذ من وفاة أبيه أو زواجه أو بدء عمله نقط ارتكاز تكون أشبه بالدعائم التى تقوم القنطرة عليها ، وترتبط بها سائر الحوادث الأخرى .

---

(١) انظر كتابه ص ٣٢ وما بعدها

هذه النقط هى التى تسهل عملية التحديد فى الزمان . ومن الواضح أن هذه الحوادث التى نطلق عليها اسم نقط الارتكاز تكون أبعد عن النسيان ، لأنها تصبح آلية لكثرة التكرار والاستعمال . أما الحوادث الأخرى المرتبطة بها فإنها تكون عرضة للنسيان وبخاصة كلما ضعفت الصلة بها .

وهنا يوحد ريبو بين التحديد والتعرف ، ويذهب إلى أن التعرف ناشئ عن غموض التحديد . فأنت تقول إذا رأيت وجه شخص: « يبدو أنى رأيت هذا الوجه من قبل ؟ » . ثم تبحث عن الزمان الذى رأيته فيه ، والمكان الذى التقيت به ، فتعجز عن ذلك . فصعوبة التعرف راجعة إلى العجز فى التحديد .

وذكر ريبو من أسباب هذا العجز المرض والشيخوخة ، وضرب مثلا بمشاهير من الرجال لم يتعرفوا على أعمالهم الشخصية . فهذا لينيه Linné كان يلهو فى أواخر حياته بقراءة تآليفه ، حتى إذا استغرق فى قراءتها ، نسى أنه مؤلفها وصاح « ما أبدع هذا ! ليتنى كنت الكاتب » . ولما طعن والتر سكوت فى السن أصبح عرضة لهذا الضرب من النسيان ، فقد أنشدوا له ذات مرة إحدى قصائده فأعجبته وسأل عن ناظمها ، وكانت إحدى مقطوعات قصيدته « القرصان » . وتروى سكرتيرته بلانتين

Ballantyne التى لزمته وكتبت سيرة حياته ، كيف أملى عليها قصة إيفانْهو Ivanhoe وهو مريض طريح الفراش ، ثم طبع الكتاب قبل أن يبرح سكوت السرير ، ولم يذكر من القصة شيئاً اللهم إلا فكرتها التى نبتت فى ذهنه قبل المرض .

ويروى أن الشاعر روجرز عندما بلغ التسعين من العمر كان يتنزه فى عربة مع سيدة سألته عن سيدة أخرى لم يستطع أن يتذكرها . فأوقف العربة ونادى على الخادم وقال له : هل أعرف السيدة فلانة ؟ فأجاب الخادم بالإيجاب . ومرت عليهما لحظة مؤلمة ، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها : لا تقلقى يا عزيزتى ، لم أصل بعد إلى الحد الذى أوقف فيه العربة لأسأل هل أعرفك أو لا .

وعندما نحس بالعجز عن التعرف ، كأن نقابل شخصاً وننسى وجهه أو اسمه ، نعود بالذاكرة إلى الوراء نفتش أين رأيناه أول مرة ، فنحدد مكانه وزمانه ، ونربط بينه وبين غيره ممن نعرف . وفى ذلك يقول وليم جيمس: « كلما برزت لنا تجربة مجردة عن موضعها فى الزمان يصعب علينا ألا نعتقد أنها من اختراع الخيال . ولكنها تصبح قطعة من الذاكرة وتتحدد الذكرى شيئاً فشيئاً كلما أحاطت بها

روابطها الماضية ، وكلما أصبحت هذه الروابط أكثر تمييزاً . دخلت يوماً عند أحد الأصدقاء ورأيت صورة زيتية معلقة على حائط حجرته ، فأحسست أول الأمر إحساساً غريباً : لا ريب أنني رأيت هذه الصورة من قبل فى مكان آخر ، ولكن أين ؟ وكيف ؟ لم أستطع قولا . وظل هذا الإحساس بأنني رأيتها من قبل يطوف بالصورة إلى أن صحت فجأة : لقد وجدتها ! إنها نسخة من رسم أنجليكو بأكاديمية فلورنسا . نعم لقد رأيتها هناك . لقد وجب أن أحيي فى ذهني خيال أكاديمية فلورنسا كي أتحقق من صدق الذكرى للصورة » .

فهذه هي الطريقة لتدارك نسيان التعرف : أن تسعى لوصل ما تراه بما سبق أن رأيته من قبل .

نسيان الطفولة ونسيان الأحلام

من أغرب الظواهر الخاصة بالنسيان اختفاء الأحداث التى وقعت فى الطفولة المبكرة، ونسيان الأحلام التى تمر بنا فى النوم .

وليس من الممكن إجراء تجارب معملية ، أى فى معامل علم النفس ، كما فعل العلماء فى الحفظ ومعرفة طرقه ، ولذلك نلجأ إلى « التأمل الباطنى » أى أن ينظر الإنسان فى باطن نفسه ليذكر ما يشاهده فيها . وهذه إحدى الحالات التى نضطر فيها إلى الالتجاء إلى منهج التأمل الباطنى أو الاستبطان . ويستطيع كل من يقرأ هذا الكتاب أن يفعل ذلك فى نفسه، فيتأمل ذاته ويعود مع الماضى إلى الوراء يبحث عن أول ذكرى يستطيع أن يسترجعها فى طفولته .

أما أنا فأقدم الذكريات التى وقعت لى هى حفلة زفاف عمى ، وكنت فى ذلك الحين فى الثالثة من العمر تقريباً . ولست أذكر أحداث ذلك اليوم بوضوح ، وإنما هى لمحات تضيء بعض تلك الحوادث ، ومنها أنى لبست "بدلة" جديدة . لست أدرى أكانت أول بدلة لبستها أم لبست قبل ذلك غيرها .

ولا أذكر لونها أو هيئتها . ثم أذكر زحمة شديدة وكأنى كالضائع وسط ذلك الزحام . ثم أذكر عربة مذهبة تجرها عدة جياد ، وكانت تسمى عربة « زينب هانم » ، هى التى تركب فيها العروس وأذكر أنها كانت واقفة فى شارع قريب منا . وفى الليل أتذكر صورة غامضة عن أضواء وموسيقى وأشخاص كثيرين وموائد للطعام ، وأنى بكيت ولا أعرف لماذا .

لعلك تلاحظ معى انقطاع الصلة بين تلك الصور الماضية ، بحيث لا تكوّن سلسلة مرتبطة ، وتلاحظ كذلك غموض تلك الصور ، وتلاحظ ثالثاً أن الصفة العاطفية هى الغالبة ، عواطف فرح وحزن ودهشة .

وهناك حوادث أخرى بعد الثالثة من عمرى لا أزال أذكر بعضها فى غموض كذلك ، مثل ذهابى إلى كتاب صغير قبل التحاقى بالمدرسة ، حيث تعلمت فى ذلك الكتاب القرآن حتى سورة « عم يتساءلون » ، وكنت أحمل لوحاً من الإردواز . وحادثة أخرى لا أذكر إلا شيئاً يسيراً منها ، هى موت أخ لى كان كان اسمه محموداً ، مات محروقاً وهو يعبث بعيدان الثقاب ، ولكنى لا أتذكر من صلتى بهذا الأخ إلا صورة واحدة وهى أننا نلعب بعد الظهر فى فناء البيت .

ويهمنى أن أذكر من ذلك الماضى البعيد شيئاً كنت أسميه

« الكابوس » ولا أعلم فى أى سن كانت تلك الذكرى ، فهى تدور حول الثالثة أو الرابعة . فى البيت الذى كنا نقطنه ، وهو بيت واسع فيه فناء ، كنا نشغل الدور الثانى منه ، ونتناول الطعام وننفق معظم الوقت فى حجرتين بين الدور الأول والثانى . ولم يكن نور الكهرباء قد عم البيوت بعد ، فالإضاءة بمصابيح الغاز . وحين يقبل المساء ، نتناول العشاء فى تلك الحجرتين ثم يطلبون منى أن أصعد للنوم ويبقون هم ، فاعتذرت مرة عن الانصراف والصعود إلى أعلى واجتياز سلم البيت ، حتى لا أرى « الكابوس » كما كنت أسميه ، وهو عبارة عن أشباح تتراءى على الحيطان تخيفنى .

أشباح وخوف ، هذا ما أذكره .

وهنا نجد تقارباً بين نسيان الطفولة ونسيان الأحلام ، لأن الأحلام أشباح تتراءى ، والأغلب أنها تصبغ بصبغة انفعالية أهمها الخوف ، فالعلة فى نسيان أحداث الطفولة تشبه العلة فى نسيان الأحلام . هذه العلة هى اقتراب الصور من « الحقيقة » أو ابتعادها عنها ، فى الطفولة وبخاصة المبكرة تختلط الحقائق بالخيالات حتى لقد يعيش الطفل فى عالم من الخيال والأشباح ، وفى النوم يرى النائم فى أحلامه أضغاثا من الرؤى يخيل إليه أنها حقائق . أى أن حقائق الطفل خيالات ،

وخيالات الحالم حقائق ، ولا يستبقى الإنسان إلا الحقائق التى تثبت أنها كذلك ، وهو لذلك ينسى أحداث الطفولة لأنه كان يضفى على الحقيقة من خياله ما يجعلها أدنى إلى الأشباح ، وينسى الأحلام لأن عقله الواعى يعلم أنها أضغاث وأباطيل .

هذه إحدي النظريات فى نسيان أحداث الطفولة ونسيان الأحلام، وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل .

وهناك نظريتان أخريتان إحداهما نظرية فرويد الذى يذهب إلى أن نسيان أحداث الطفولة نتيجة « الكبت » ، وكذلك الحال فى الأحلام . والثانية نظرية جمهرة من علماء النفس ومنهم « بيرون » وهى أن نسيان أحداث الطفولة المبكرة يرجع فيما يبدو إلى سبب عضوى ، هو قصور نمو المخ . ولكن هذه العلة إذا صحت بالنسبة للطفولة فهى لا تعلل نسيان الأحلام . هذا فضلا عن اختلاف الأفراد فى نسيانهم اختلافاً كبيراً ، فبعض الناس يذكر أشياء وقعت له وهو فى الشهر السادس ،والبعض الآخر لا يذكر شيئاً قبل سن الثامنة من العمر .

ففى تجارب فكتور هنرى وزوجته والتى أجرياها على ١٢٣ طالباً من المراهقين كانت النتيجة كما يأتى :

السن	٦ شهور	٨	١ سنة	١½	٢	٢½	٣	٣½	٤	٥	٧	٨
العدد	١	٢	٤	٩	٢٣	٢٠	١٩	١٤	١٢	٦	٢	١

أما بلونسكى Blonsky فقد أجرى تجربتين الأولى على ١٩٠ من الطلبة البالغين الروس ، وتراوحت الذكرى بين سنة وثمانى سنوات . والأخرى على ٨٣ طالباً تتراوح سنهم بين ١١ ، ١٢ عاماً ، فكانت النتيجة بين سنة وست سنوات . ويرى بلونسكى أن متوسط السن التى يتذكر فيها المرء أحداث الطفولة هى الثالثة .

وأجرى برت Burtt تجربة على ابنه البالغ من العمر ثمانى سنوات ، إذ جعله يحفظ نصوصاً من اللغة الإغريقية ، كان يقرأ عليه بعضها يومياً لمدة ثلاثة شهور ، حين كان عمره بين خمسة عشر شهراً وثلاث سنوات ، فرأى أن النصوص التى كان قد سمعها وهو طفل أسهل فى حفظها عن الأخرى ، مما يدل على وجود أثر تلك المحفوظات فى تلك السن الصغيرة الغضة .

وقد فطن علماء النفس منذ القرن الماضى إلى احتفاظ الطفل بالآثار التى تقع تحت حواسه ، وإلى ظهورها تحت ظروف خاصة ، ومنها ظاهرة اللغات التى يكون الشخص قد سمعها فى طفولته . مثال ذلك ما رواه ريبو نقلا عن الدكتور

دوﭬال من أن حطاباً عجوزاً كان يعيش فى صباه على حدود بولندا ، ولم يكن يتكلم إلا اللغة البولندية . ثم انتقل بعد ذلك إلى المنطقة الألمانية وعاش فيها . وأكد أولاده أنه لم يتكلم اللغة البولندية منذ أربعين سنة ، وما سمعوا منه كلمة واحدة بولندية . وأجريت له عملية جراحية وظل مخدراً ساعتين كان يتكلم فى خلالهما ويصلى ويغنى باللغة البولندية فقط .

ومن العوامل التى تنفض الغبار عن ذكريات الطفولة التخدير بالكلوروفورم أو أنواع المخدرات الأخرى . ومن العقاقير الحديثة التى تستعمل فى ارتياد اللاشعور عقار يسمى سكوبوكلورالوز Scopochloralose وقد لاحظ الأطباء ظهور ذكريات قديمة عندما يقع المريض تحت تأثير المخدر فتبدر منه أشياء تعد من العجائب . من ذلك أن امرأة أخذت وهى تهذى تحت تأثير المخدر تُسَمِّع نصا من لغة أجنبية لا تفهم معناه كانت قد سمعته وهى طفلة دون أن تبذل أى جهد فى حفظه .

وكثيراً ما يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسى لمعرفة الأحداث الماضية التى وقعت للمريض أثناء الطفولة ونسيها . وكان العلماء قد عدلوا عن التنويم المغناطيسى إلى طريقة « التداعى الحر » و « التداعى المقيد » وذلك بأن يستلقى

المريض في استرخاء ويأخذ في سرد أفكاره . إلا أن بعض المرضى يأبون أن يتذكروا ويقاومون ظهور كوامن أنفسهم ، ولذلك عاد العلماء منذ الحرب الأخيرة إلى استعمال التنويم المغناطيسي . مثال ذلك أن امرأة أصيبت بداء الوسوسة وكلما غسلت يديها بالماء خيل إليها أنه دم ، وظلت على هذه الحال ثلاث سنوات ، فاستشارت أحد الأطباء النفسانيين فتذكرت وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي أنها حين كانت في الخامسة من العمر شاركت في ذبح دجاجة فتلوثت يداها بالدماء فغسلتهما . ولكن هذا المنظر أثر في نفسها أثراً شديداً في ذلك ذلك الحين ، ونسيته مع الوقت ، إلى أن عاد إلى الظهور لاشعوريا وهي امرأة .

أما فرويد وأصحاب مدرسة التحليل النفساني فإنهم يذهبون إلى أن كل ما يقع تحت حواس الطفل منذ أن يولد يظل باقياً في نفسه لا يزول أبداً ، ويحرك صاحبه لاشعورياً في مستقبل حياته . ويُرْجِع فرويد إلى اللذة الجنسية كل سلوك للإنسان. ويزعم أن الوليد يشعر بلذة جنسية من لمس سطح جلده ، وأن بعض المواضع أكثر حساسية من غيرها مثل الفم عند امتصاص الثدى ، والأعضاء التناسلية وعند التبول والتبرز . ولذلك يعلل فرويد إدمان المدخن على وضع « السجارة » في

فمه إلى تلمس تلك اللذة التى كان يحس بها وهو طفل رضيع يمتص ثدى أمه ، أو الثدى الصناعى .

ويهمنا أن نبسط تعليل فرويد لنسيان الطفولة ، فهو فى مذهبه يتكون حول الخامسة من العمر ، عندما يتكون « الرقيب » وهو عبارة عن حاجز من التقاليد والدين والنواهى التى تفرض على الطفل وخاصة فى الحياة الجنسية ، إذ بعد أن كان الطفل حراً لا يعقل الأمور الجنسية ولا يخفيها أهله عنه لقلة إدراكه ، إذا به يؤخذ بالشدة ويؤمر بإخفاء الأعضاء التناسلية ويحرم عايه الحديث عنها ويجد ستاراً حديدياً مضروباً حول هذه المسائل . وبذلك يتعلم أن « يكبت » الخواطر التى تدور حول الأمور الجنسية ، وهنا يبدأ الرقيب أن يتكون ويصبح حاجزاً يخفى وراءه كثيراً من الأشياء يتعود نسيانها مع الزمان ، ويخاف ظهورها ويهرب من النظر إليها بل ومن التفكير فيها . وليس الحياء الذى يصاحب المرء حين يواجه المسائل الجنسية إلا مظهراً من مظاهر الخوف . ولذلك كان ما يخفيه المرء ، ويكبته ، أو ينساه ، هو ما يخاف منه ، وما يكون مصدر ألم له .

ولا تثبت نظرية فرويد للنقد طويلا ، لأن متوسط سن النسيان لأحداث الطفولة هو الثالثة كما اتضح من التجارب

العلمية ، على حين أن الرقيب الذى يحدثنا عنه فرويد لا يظهر إلا بعد الخامسة . ومن جهة أخرى نرى أن كثيراً من ذكريات الطفولة التى لا تزال حية عند أصحابها هى ذكريات تقوم على الخوف أو الألم، مما يناقض نظرية فرويد فى الكبت .

ونحن نميل إلى تأييد النظرية الاجتماعية فى نسيان الطفولة ، وهى نفسها تنطبق على نسيان الأحلام .

وليس من الممكن تطبيق المناهج العلمية الموضوعية على الأحلام كما يفعل العلماء فى ظواهر نفسية كثيرة . لأن الحلم يدور بينه وبين صاحبه ولا يمكن ملاحظته من الخارج ، بل أكثر من ذلك لا يمكن لصاحبه أن يلاحظ نفسه وهو يحلم إلا بعد اليقظة ، فإما أن يتذكر الرؤيا وإما أن ينساها . وذهب بعض العلماء إلى أن كل إنسان يحلم فى نومه ولكنه لا يتذكر . والأغلب أن الحلم سريع النسيان ، ولذلك نصح العلماء الذين يدرسون الأحلام أن يحتفظ المرء بورق وقلم إلى جانب السرير حتى إذا استيقظ عقب الرؤيا دونها مباشرة قبل أن تغيب فى مجاهل النسيان . ويقول بعض العلماء إن الأحلام لا تظهر إلا فى الوقت الذى يخف فيه النوم ، أما النائم المستغرق فى نومه فلا يحلم . وهم يعتمدون فى تأييد هذه النظرية على أن الباعث إلى الأحلام هو الإحساسات الظاهرة أو الباطنة ،

ولا يحس المرء إلا إذا كان فى شبه يقظة .

وعند فرويد أن النوم الصحيح ما كان بغير أحلام ، فإذا حلم المرء كان هذا دليلا على أن صاحب الرؤيا لا يزال يتأثر بالمؤثرات الخارجية والداخلية ، غير أن هذه التأثيرات خارجية كانت أم داخلية أى فى صورة رغبات ومخاوف ، تتحول إلى صور عجيبة فى الحلم فلا توقظ النائم ، ولذلك كان الحلم تحقيق رغبة لا يمكن تحقيقها فى الواقع ، وهو لهذا السبب « حارس النوم » .

وتمتاز الأحلام بأمرين : خروجها عن منطق العقل فى تركيب الصور ، وعدم تقيدها بالزمان . وكلا الأمرين لا يتفقان مع الحياة الواقعية التى يعيش فيها الإنسان مع غيره من الناس ، ويضطر إلى تقييد نفسه بترتيب الأحداث ووضعها فى موضعها من الماضى كى يكون مفهوماً من غيره حين يحدثهم عن هذه الأحداث معبراً عنها بالكلام .

فالحياة الواقعية تضطرنا إلى التذكر ، أى وضع الأشياء فى موضعها الصحيح من الزمان . ويضرب الأستاذ بيير جانيه مثلا لاضطرار المرء إلى التذكر بمعسكر لجماعة من البدائيين وضعوا عليه ديدبانا مكلفاً بمراقبة الأعداء ومعرفة حركاتهم ونقلها إلى رئيس القبيلة ، ويضطر الديدبان إلى رواية

ما حدث من ذاكرته بطريقة مفهومة مرتبة ، فهو يجيب عن أسئلة الرئيس واستفهاماته بأن هذا الشخص جاء « قبل » ذاك ، وجرى هذا الشخص « بعد » ذاك ، ووقع هذا الحادث فى الصباح ، وذلك الحادث عند الظهر ، وهكذا . وإذا نسى الديدبان هذه الحوادث ، أو اضطرب فى روايتها ، أدى ذلك إلى وقوع القبيله بأسرها فى الخطر .

ونحن فى الحياة الواقعية مضطرون إلى التعامل مع غيرنا من الناس فى هيئة معقولة من الكلام ، وإلى ترتيب الحوادث ترتيباً صحيحاً فى سجل الزمان . نحن إذن فى حياتنا الواقعية « مقيدون » . ولا تحسبن أن هذا التقييد الذى تفرضه علينا الحياة الاجتماعية يروقنا ، ولذلك « نهرب » منه ، أى نهرب من القيود . ولكن أين المفر ؟ إننا نهرب فى أحلام اليقظة ، وفى الأحلام ، حيث نكون أحراراً لا نتقيد بترتيب الزمان . فالطالب فى أول العام يتصور وهو فى أحلام يقظته أنه نجح فى الامتحان آخر العام ، والتاجر يرى فى أحلامه أنه كسب فى تجارته ، وكلاهما يحقق رغبته بغير جهد ، ويقفز إلى المستقبل كأنه الحاضر دون أن يمر بمراحله . جملة القول لا يراعى الإنسان فى أحلامه ترتيب الزمان ، ولا يحفل به ، فيرى الماضى حاضرا ، ويجعل المستقبل ماضياً ، وهذا كله اختلال

لا ترتضيه الذاكرة ، ولا حاجة بعد ذلك النسيان ، بل ولا حاجة إلى التذكر أصلا ، وهذا هو سر نسيان الأحلام عقب وقوعها .

ومن هذا الوجه يمكن تعليل نسيان الطفولة أيضاً ، لأن الطفل قبل الثالثة من العمر لا يميز الزمان ، فهو لا يعرف الوقت ولا يدرى اليوم من الأمس حتى ليقول ذهبنا « باكر » إلى الحديقة وهو يريد « الأمس » ، ولو سئل عن الوقت أهو ليل أم نهار لم يميز لأنه لا يعرف ، فهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يتذكر ، وهذه هى علة نسيان الطفولة ، نعنى عدم إدراك الطفل للزمان .

وقد مر بنا فى ابتداء هذا الكتاب أن الذاكرة نوعان ، آلية ولفظية ، أو حركية ومعقولة ، ويضيف بعض العلماء إلى هذا التقسيم نوعاً ثالثاً هو الذاكرة « الوهمية » ، فإذا كانت الآلية تعتمد على الإحساس والحركة وتعم الإنسان والحيوان ، فإن الذاكر اللفظية « اجتماعية » لأن الألفاظ المنطوقة التى تعبر عن المعانى إنما نشأت لحاجة الإنسان إلى التعامل مع غيره من بنى جنسه ونقل أفكاره إليهم ، أما الذاكرة الوهمية فهى « لا اجتماعية » وهى التى تظهر عند الطفل فى بدء نشأته ، وعند المريض الذى يهذى ، وعند النائم الذى يحلم . ذلك أن

الصور التى تتتابع فى الأحلام والهذيان تبعث مشاهد من الماضى ، ولكن صاحبها لا يراها قطعة من الماضى بل جزءاً من الحاضر ، لأنها بالنسبة له حين يهذى أو يحلم حاضر وواقع . ذلك أن الذاكرة فى الحلم تعيش فيه كأنه هو الحقيقة ، وقد يعتقد الحالم فى حلمه إلى حد يبعثه إلى الحركة فينهض من فراشه ويأتى أعمالا كثيرة كما هى الحال فى « الجولان النومى » .

ويذهب معظم العلماء إلى أن ظهور ذكريات الطفولة لمبكرة نوع من فيض التذكر أو إفراط فى التذكر Hypermnésie كهذه الأمثلة التى ضربناها عن الذين تذكروا لغات أجنبية سمعوها فى الطفولة . ويفسر جان ديلاى هذا الإفراط بأنه تحرير للذاكرة الوهمية التى تحجزها الذاكرة الاجتماعية عادة وما يتصل بالحياة الاجتماعية من انتباه وتقييد وملاءة مع الواقع . فإذا زالت الحواجز الاجتماعية تحطمت الذكرة العقلية وفاضت الصور على هواها ، وكان ذلك علة أمراض الذاكرة .

جملة القول نحن نذكر ما يهمنا كما قلنا من قبل ، وما يهمنا خاضع لمنطق الواقع فى الحياة الاجتماعية ، اللهم إلا إذا عجز المرء عن مسايرة المجتمع ولقى منه عنتاً ، فهو يهرب منه ويعيش فى عالم الوهم والخيال ، ويخلق الصور على هواه . وهذه هى حال الطفل ، وحال النائم الحالم .

ومما يلاحظ أن الطفل يمر بالذاكرات الثلاث على التوالى ، فهو يبدأ بالذاكرة الآلية فتنشأ عنده عادات تقوم على ما يتعلمه بطريق المحاولة وحذف الأخطاء وطريق الأفعال الشرطية . ويمر بعد ذلك وهو فى الثانية والثالثة والرابعة بمرحلة الذاكرة الوهمية التى يعيش فيها فى عالم من الخرافة والأوهام ، لا يميز بين الماضى والحاضر ، ولا يفصل بين الخيالى والحقيقى . وهناك بعض الصبيان المتخلفين يقفون عند هذه المرحلة مع بلوغهم سناً كبيرة . حتى إذا بلغ الطفل الخامسة بدأ فى مرحلة جديدة هى مرحلة الذاكرة الاجتماعية ، وهى ذاكرة منطقية مرتبة تنتظم فى سلك الزمان .

وإذ قد وفينا البحث عن النسيان الطبيعى الذى يعم أغلب الناس ، فلنكتف بهذا القدر ولننتقل إلى الحديث عن النسيان الذى يعد فى باب المرض والشذوذ .

النسيان فى الحياة اليومية

اهتم فرويد بهذا الموضوع منذ أكثر من خمسين عاماً ، وكتب فيه كتاباً اسمه « المرض النفسى فى الحياة اليومية » نقل إلى معظم اللغات الحية ، ما عدا اللغة العربية . وقد قرأت الكتاب منقولا إلى الفرنسية ، وتوجد منه طبعة إنجليزية رخيصة . ولكن ترجمته إلى العربية فى غاية الصعوبة لأن المؤلف يشير إلى أسماء واصطلاحات باللغة الألمانية لا تفهم إلا فى أصلها . والكتاب على الرغم من مخالفتنا لمذهب صاحبه فى غاية الطرافة لأنه يقوم على رواية حوادث شخصية يحللها فرويد على نفسه أو يحكيها عن أشخاص عرفهم وسألوه رأيه . وهو يتحدث فى الفصل الأول عن نسيان أسماء الأعلام وفى الثانى عن الأسماء الأجنبية وفى الثالث عن نسيان الألفاظ وفى الرابع عن ذكريات الطفولة ، إلى فصول أخرى كثيرة .

ونحب أن نقف عند ذكريات الطفولة ليكون الحديث موصولا بما سبق . وليس ن المهم أن نبدأ بباب معين ، لأن فرويد صاحب نظرية عامة يفسر بها جميع المظاهر النفسية . وأساس هذه النظرية الاعتقاد بوجود « حتمية

بسيكولوجية ، أى أن أى سلوك إنسانى مهما يكن تافها فلا بد أن يخضع لعلة ، وإذا عجزنا عن معرفة هذه العلة فذلك نقص فى علمنا . ثم يقسم فرويد الحياة النفسية إلى شعورية ولاشعورية وأن الأحداث اللاشعورية هى التى توجه السلوك الشعورى . وهذه الحياة اللاشعورية لها منطقها الخاص ، وإذا أخفيت بعض الأمور نتيجة « الكبت » ، فإنها تظهر فى ثوب مقنع بما يسميه الاستبدال أو الانتقال . ويعتمد فرويد على النسيان فى الدلالة على وجود هذه الحياة اللاشعورية .

ولنرجع إلى حديث نسيان الطفولة . وقد لاحظ فرويد أن أحداث الطفولة المبكرة التى نذكرها هى فى الغالب تافهة وعديمة القيمة، وننسى إلى جانب ذلك حوادث أخرى عظيمة الأثر . فإن قال قائل إن التذكر يقوم على الاختيار ، وأن الطفل قد اختار هذه الأحداث دون غيرها لأن عقليته تختلف عن عقلية الكبار ، رد عليهم فرويد بأن النظر العميق يدل على أن هذه الحوادث التافهة لها دلالتها ، لأنها تخفى وراءها أموراً أخطر ، وترتبط بها بما يسميه عملية الاستبدال Déplacement ومن أجل ذلك يسمى فرويد حوادث الطفولة التى نتذكرها حوادث للتعمية أو التغطية Souvenirs de couvertures ، لأمور جنسية يكبتها صاحبها .

هذا شاب فى الرابعة والعشرين يتذكر وهو فى الخامسة أنه جالس فى حديقة منزل ريفى إلى كرسى بجانب عمته التى كانت تعلمه الإبجدية . ولقى مشقة فى التمييز بين حرف الميم والنون (باللغة الإفرنجية N و M) فطلب من عمته أن تعلمه كيف يميز بينهما ، فأخبرته أن الميم (بالإفرنجية طبعاً) لها رِجْل تزيد على النون . وحول ذلك الوقت أراد أن يعرف الفرق بين الولد والبنت فطلب من عمته أن تخبره عن هذا الفرق فأجابته الجواب نفسه . يقول فرويد إن العلة فى تذكر هذه الحادثة التافهة أى الفرق بين الميم والنون رمز يخفى وراءه التمييز الجنسى بين الولد والبنت .

لفت النسيان نظر فرويد ولم تقنعه تعليلات غيره من من العلماء فأخذ يراقب نفسه يحللها ، كما أخذ يصف ذاكرته وقوتها قال : إنى لا أنسى بسهولة وكنت فى حداثة سنى صاحب ذاكرة فائقة الحد فى القوة . فى عهد التلمذة كان يلذ لى أن أردد عن ظهر قلب صفحة بأكملها عقب قراءتها ، وكان فى استطاعتى إعادة محاضرة علمية بعد سماعها . واستطعت فى امتحان دبلوم الطب أن أجيب عن الأسئلة بما جاء فى الكتب المقررة مع أنى لم أقرأها إلا مرة واحدة قراءة عاجلة . ولم تضعف ذاكرتى منذ ذلك الحين .

وإنما ساق فرويد هذه المقدمة عن قوة ذاكرته ليبين أنه إذا نسي بعد ذلك شيئاً كان الأمر يدعو إلى الغرابة . وهذه إحدى نوادر نسيانه قال : كنت مكلفاً أن أشترى لسيدة جاءت حديثاً إلى فينا صندوقاً حديدياً تحفظ فيه أوراقها وأموالها . وكان فى ذهنى فى الوقت الذى عرضت عليها معونتى صورة واضحة لواجهة محل فى وسط المدينة رأيت فيه هذا النوع من الخزائن . ومع أنى لم أذكر اسم الشارع إلا أنى كنت على يقين من العثور على المحل إذا تجولت فى المدينة لأنى أذكر أنى مررت به مئات من المرات . ولكن العجيب من الأمر أنى عجزت عن معرفة المحل على الرغم من البحث فى الدليل لمعرفة عنوان جميع مصانع الخزائن . ولم أكن فى حاجة إلى ذلك كله إذ لم يكد بصرى يقع على اسم المحل فى الدليل حتى عرفته وتذكرته . ولا ريب أنى كنت قد مررت بذلك المحل مئات المرات من قبل كلما ذهبت لزيارة أسرة « فلان » التى تسكن فى البيت نفسه الذى يوجد فيه ذلك المحل . فلما قطعت صلتى بتلك الأسرة تعودت دون أن أشعر أن أتجنب المرور فى ذلك الحى وبتلك الدار ، نتيجة الشعور بالكراهية لأهل الدار . أما نسيان محل الخزائن فيرجع الى ارتباطه بالدار ، أو على حد تعبير فرويد نتيجة عملية استبدال أو إنتقال .

ومن الأمور التى يشكو كثير من الناس نسيانها الأشياء التى يطلبونها من مواضعها فلا يعثرون عليها ، لأنهم ينسون أين وضعوها ، كالحال فى المؤلف الذى ينسى أين وضع كتاباً أو ورقة . ويروى فرويد أنه لا يجد صعوبة ما فى البحث عن كتاب وضعه على مكتبه ، ولكنه عجز فى إحدى المرات عن إيجاد قائمة بالكتب (كتالوج) استلمه بالبريد ، وكان عازماً أن يطلب كتاباً قرأ عنوانه فيه وهو يتعلق باللغة ، ومؤلفه ممن يحب فرويد أسلوبهم ويقدر آراءه فى علم النفس والتاريخ والحضارة . ويذهب فرويد إلى أن هذا الإعجاب بصاحب الكتاب هو علة نسيان الكتالوج .

ونقل فرويد عن غيره هذه الحادثة للدلالة على أن معرفة سبب النسيان يؤدى إلى ذهاب النسيان قال : أرادت فتاة أن تقص قطعة من القماش فأفسدتها عندما قصت « الياقة » واضطرت إلى استدعاء حائكة ثياب لإصلاح ما أفسدته . فلما وصلت الحائكة بحثت الفتاة فى كل مكان عن القماش ، وقلبت الأدراج رأساً على عقب دون فائدة ، حتى إذا أخذ الغضب منها مأخذه أخذت تحدث نفسها قائلة كيف اختفى القماش ، لا ريب أنى « لا أريد » العثور عليه . ولما عاد الهدوء إلى نفسها تبينت أنها كانت فى خجل أن تظهر الحائكة على عجزها عن

قص ياقة فستا . وبعد أن اطمأنت إلى هذا التفسير قامت من مكانها واتجهت إلى أحد الدواليب واستخرجت منه قطعة القماش .

وأنت ترى من هذه الأمثلة اليسيرة التى نقلناها عن كتاب فرويد أنه لا يُرْجع كل نسيان إلى علة جنسية ، أو إلى علة عميقة الجذور فى الطفولة ، فقد يكون الأمر مجرد بغض أو نفور أو هيبة أو خوف ولكن هذه العواطف تكمن فى اللاشعور وتحرك صاحبها .

والرأى عندى الذى وصلت إليه نتيجة تجاربى الخاصة أن ما يحبه المرء يقبل عليه ويذكره ، وما يبغضه ينفر منه ويبتعد عنه ، إما شعورياً وإما لاشعورياً . فهذه سيدة أغلقت الدولاب بالمفتاح ووضعت المفتاح فى حقيبتها عند خروجها خشية أن تمتد يد الخادمة إلى العبث بالمجوهرات الموضوعة فى صندوق داخل الدولاب وأن تسرقها . ويتضح بعد ذلك أن السيدة حين تنبهت إلى هذا الأمر ونظرت إلى الصندوق كانت قد أخرجته ووضعته على السرير إلى جانب الدولاب ونسيته هناك . فلما عادت من الخارج عجبت كيف نسيت الصندوق على السرير مع شدة عنايتها أن تحفظ حليها من السرقة ، وأن تقفل عليها عليها بالمفتاح . وتبين من التحليل النفسانى أنها ترغب فى تغيير

حليها وشراء حلى جديدة .

وكنت فى صدر شبابى حاد الذاكرة لا أنسى مما أقرأ شيئاً . وكان يكفى أن أقرأ الكتاب مرة واحدة حتى ترتسم صفحاته فى ذهنى ، حتى إذا حضرت الامتحان تمثلت الكتاب أمامى كأنى أقلبه ، ذلك أن ذاكرتى بصرية ، وقراءتى صامتة . واشتريت وأنا فى الثانية عشرة من عمرى مصحفاً صغيراً أضعه فى جيبى وعزمت على حفظ بعض سور من القرآن ومنها سورة «يس» . ثم انقطعت عن قراءة القرآن وحفظه ، وسألنى والدى فيما بعد — وكان كثير التلاوة والعبادة — لماذا لا أحفظ القرآن ، فأخبرته أنى أحفظ سورة « يس » ، فلم يصدق ، فتلوتها عليه فاندهش . ولكن هذه الذاكرة الشديدة القوة قد ذهبت الآن إلى درجة أنى أنسى أسماء الكتب ومؤلفيها مع اشتغالى بتدريسها . وأغرب من ذلك نسيان أسماء الأشخاص الذين أعرفهم والذين تربطنى بهم صلات قوية . وكثيراً ما تحدث لى هذه الظاهرة الضيق والحرج ، إذ أقابل شخصاً فى الطريق أعرفه من شكله ، فأسلم عليه ، ويهدينى السلام ، ويحيينى باسمى ، ونتحدث معا حديث الأصدقاء ، ولكن اسمه يهرب منى ولا يجرى على لسانى ، وقد أذكره بعد أن نفترق وبعد أن أفتش عنه فى ذاكرتى مستعيناً بالروابط الذهنية الماضية .

وينكشف حرجى إذا كان معى صديق آخر ، أو قدم علينا شخص ثالث ، ويصبح من واجبى القيام بتقديم أحدهما إلى الآخر وتعريف بعضهما إلى بعض .

وأخبرنى أحد أصدقائى المحامين ، وكنا نتحدث عن عجائب النسيان ، وأخذ كل واحد يذكر نوادره ، قال : كلفنى صاحب المكتب الذى أشتغل عنده أن أبحث قضية وأكتب فيها مذكرة ، وبعد يومين سألنى عن رأيى فى تلك القضية ، فقلت له إنى لم أبحثها بعد . قال : كيف لم تبحثها وقد قدمت فى موضوعها مذكرة ؟ قلت : إنى لم أكتب أى مذكرة . فأخرج من بين أوراقه المذكرة وأطلعنى عليها وقال : أليس هذا خطك ؟ وعندئذ فقط تذكرت ، وعجبت لهذا النسيان .

ومن أغرب حوادث النسيان التى وقعت لى أنى كنت فى زيارة برلين عام ١٩٣٦ فى دورة الألعاب الأولمبية ، وكانت النقود التى يصرفونها فى ذلك الحين نقود سياحة تقل أربعين فى المائة عن السعر الرسمى لاجتذاب السائحين ، على أن يصرف هذا النقد أو المارك مع التوقيع على جواز السفر فى صورة شيكات تسمى « الرايخ مارك » وهى لا تصرف إلا من البنك . فى صباح اليوم الثانى من وصولى برلين ذهبت إلى البنك

لأصرف الشيكات ، ولكنى نسيت جواز السفر فى الفندق ، فلم أستطع الصرف فى ذلك الصباح . وعدت بعد الغداء إلى الفندق ، وجلست عند الأصيل أكتب بعض الرسائل إلى أصدقائى ولمحت أمامى جواز السفر فقلت ضعه فى جيبك حتى لا تنساه ، ثم تحسست شيكات الرايخ مارك فلم أجدها . فطار صوابى إذ لم يكن معى مال غيرها أنفقه فى ذلك البلد . وجلست أتذكر أين وضعتها ، وأين يمكن أن أكون قد نسيتها ، واستعرضت جميع الأماكن التى ذهبت إليها ، وطرقتها أسألها ، وأخيراً ذهبت صباح اليوم التالى إلى البنك وسألت عنها ، فأخبرنى الموظف هناك أنى نسيتها على المنضدة .

وأحسب أن تعليل فرويد من أننى أكره هذه الشيكات فى اللاشعور تعليل لا يستقيم . وإنما العلة الصحيحة هى تلك القاعدة التى سبق ذكرها من قبل فى باب الحفظ ، وهى عدم التداخل ، لأن ازدحام الذهن بعدة أمور فى آن واحد يؤدى إلى التضارب وإلى الاختلاط . وقد قيل ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

هذا إلى أنى حين أشتغل بعمل عقلى ، كتأليف كتاب ، أو كتابة مقالة ، أو إلقاء محاضرة ، أنصرف إليه انصرافاً تاماً ، فأستغرق فيه ، وأظل أفكر فى الموضوع حتى وأنا أمشى

فى الطريق أو أركب الترام أو أختلف إلى مجلس من الأصدقاء، حتى إذا اجتذبنى التأمل ذهلت عما حولى . وأحسب أن هذا الاستغراق شرط كل منتج وكل مبتكر . وليس من الغريب بعد ذلك أن تسمع القصص عن بعض العلماء الذين نسوا حتى اسم أنفسهم لأن أذهانهم كانت مشغولة بالتفكير فى حل المسائل :

وقد يكون الاستغراق الذى يصرف الذهن عن الناس وعن الأشياء لعلة أخرى غير علة الابتكار والاختراع والتأليف ، لأن انشغال البال قد يرجع إلى الهموم التى تفضى إلى القلق . وما بالك بمن فقد ماله أو ولده أو أصيب بمرض يستعصى شفاؤه وغير ذلك من الصعاب التى تفاجىء المرء ولا يجد لها حلا أو مخرجاً ، فيظل حبيس نفسه تثقله الهموم وتدور فى رأسه الأوهام ، حتى ليغفل عما حوله ، وإذا اشتد به الهم نسى كل شىء ، لا بعض الأسماء أو الأشياء فقط . ومن شأن الكوارث إذا نزلت أن تزيد فى حدة التذكر أو تدفع إلى النسيان كما قال البحترى يصف إيوان كسرى :

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتُنسِى

ثم إن اتساع العمران وتعقد المصالح فى الحضارة الحديثة مما تنوء به ذاكرة أى فرد ، ومن أجل ذلك اهتدى الإنسان

إلى الكتابة يقيد معلوماته ، وأصبح يستعين بالمذكرات أو المفكرات يدون فيها مواعيده ويعلم منها مصالحه فى غده وما بعد غده . وهذا التقييد ضرب من التنظيم حتى لا يعول المرء تعويلا تاماً على ذاكرته ، التى قد تثقلها المشاغل والمواعيد .

ولكن فرويد لا يؤمن بهذه الأسباب العامة ، ويحاول أن يلتمس سبباً لنسيان كل اسم يغفل عنه من يريد تذكره . وهو ينعى على غيره من علماء النفس — فى استهلال الكتاب الذى ننقل عنه — أنهم إذا سئلوا لم ينسى المرء اسم صديق قالوا : لأن أسماء الأعلام أقرب من غيرها إلى النسيان . ثم يروى فرويد قصة نسيانه اسم فنان يسمى سنيوريللى Signorelli معللا ذلك بالكبت والإبدال . قال : كنت فى رحلة ومعى أحد الغرباء فى العربة ونحن نجتاز دلماسيا من أعمال البوسنة عام ١٨٩٨ . ودار بيننا الحديث حول إيطاليا وسألت رفيقى هل زار مدينة أورفيتو Orvieto حيث توجد الكتدرائية المشهورة التى صور على جدرانها الأستاذ . . . . . . وهنا نسيت اسم ذلك الأستاذ ، وقفز إلى خاطرى بدلا منه اسم مصورين آخرين هما بوتشيلى Botticelli وبولترافيو Boltraffoi ، عرفت فى الحال أنهما غير مقصودين . وشرعت أبحث عن السبب فى نسيان اسم «سنيوريللى» ،

فرأيت أنه نتيجة اضطراب بين موضوع الحديث السابق وبين هذا الحديث . ذلك أنى قبل أن أسأل رفيقى عن زيارته مدينة أورفيتو كنا نتحادث عن عادات الترك الذين يقطنون البوسنة والهرسك ، وقلت لرفيقى ما نقله إلىّ أحد الأصدقاء من أن هؤلاء الأتراك يثقون ثقة عمياء بالطب كما ينفرون نفوراً قوياً من الموت . وذكرت له كذلك قصة أخرى عن انغماس هؤلاء القوم فى الأمور الجنسية ، وأن أحدهم إذا أصيب باضطراب أو ضعف جنسى جزع جزعاً شديداً لا يتلاءم مع نفورهم من الموت . وروى صاحبى ما قاله له أحد المرضى من أن الأمور الجنسية إذا اضطربت فلن تساوى الحياة شيئاً . وعدلت عن هذا الحديث الدقيق الشائك مع رفيق سفر غريب وحولت مجرى الحديث عن كل ما يتصل بالجنسيات والموت . وكنت فى ذلك الوقت واقعاً تحت تأثير حادثة علمت نبأها منذ أسابيع بعد إقامة قصيرة فى مدينة ترافوا Trafoi ذلك أن أحد المرضى الذين كنت أعالجهم انتحر بسبب اضطرابات جنسية لم يشف منها . وعلى الرغم من محاولتى إبعاد الحديث عن الأمور الجنسية من ذهنى ، فإن تلك الحادثة كانت تلح فى الظهور ، عن لاشعور ، وذلك للصلة بين اسم بولترافيو المصور ، واسم المدينة ترافوا . كنت أود نسيان

ما يتصل بتلك المدينة فأدى ذلك إلى « كبت » ذلك الأمر . حقاً لم أكن أرغب فى نسيان اسم المصور الذى صور على حوائط كنيسة أورفيتو ، إلا أن الرابطة بين ذلك الأمر وهذا الاسم أدت إلى نسيان اسم الشخص رغماً عنى على حين أن عزمى كان متجهاً إلى نسيان تلك الحادثة .

وهكذا يمضى فرويد فى تحليل طويل ليبين فيه الصلة بين نسيان أسماء الأعلام وبين حوادث أخرى يريد الإنسان كبتها ودفعها إلى مجاهل النسيان .

وهناك طائفة من الأمثلة يضربها فرويد على نسيان الأسماء وترجع إلى « عقدة شخصية » أى إلى موضوع يتصل بشخصه ويثير فيه انفعالات قوية هى فى الأغلب مؤلمة . والغريب أن الرابطة بين الاسم الذى ينساه فرويد وبين شخصه رابطة لا يتوقعها ، فهى تقوم على تشابه ظاهرى ، فى الرسم أو الصوت أو المعنى . مثال ذلك أن أحد مرضاه طلب منه أن يدله على عين ماء ساخنة فى الرفييرا ، وكان يعرف إحدى هذه العيون ، بل ويعرف كذلك اسم الطبيب الذى يعالج عندها ، ولكنه عجز عن تذكر اسم تلك العين ، فالتمس من المريض الانتظار بعض الشىء حتى يسأل بعض أقاربه . وقيل له كيف تنسى اسم ذلك الطبيب وقد أمضيت عنده زمناً ، إنه يدعى

نزفى Nervi ، ويعلل فرويد نسيان ذلك الاسم بأنه قريب الشبه من لفظة الأعصاب بالألمانية Nerven ، والأعصاب والأمراض العصبية هى التى تشغل باله على الدوام .

ويروى « يونج » أن شخصاً كان يحب فتاة ثم تزوجت من شخص آخر غيره ، كان يعرفه من زمن طويل لصلة أعمال بينهما ، فإذا به الآن ينسى اسمه كلما أراد أن ينطق به ، وإذا أراد أن يكتب إليه رسالة طلب معرفة اسمه من شخص ثالث .

ولا ريب فى أن مذهب فرويد وأصحاب التحليل النفسانى له وجاهته ، وهو يفسر إلى حد كبير العلة فى نسيان الأسماء والأشياء ، لولا بعض المغالاة التى يتصف بها مذهبه .

فقدان الذاكرة

هذه قصة قرأتها فى جريدة « الأخبار الجديدة » بتاريخ ١٨ / ٩ / ١٩٥٣ عن شاب فى التاسعة عشرة من عمره فقد الذاكرة ، ولا يعرف اسمه ، ولا بلده ، ولا أهله ، ولا صناعته ، ولا تاريخ حياته ، ثم فقد النطق بعد أن فقد الذاكرة .

وأول مرة أغمى فيها هى ٢٦ / ٨ / ١٩٥٣ ، وأصبح لا يذكر شيئاً عن ماضيه قبل ذلك . وقد استيقظ من إغمائه ليجد نفسه فجأة فى منزل رجل فقير لا يعرفه ، أخذ يعنى به حتى إذا عاد إلى نفسه واستمع إلى صاحب الدار يروى له كيف وجده مغمى عليه فى الطريق ، أسرع بالخروج إلى الطريق مرة ثانية . وحاول أن يتذكر عنوانه أو الحادثة التى وقعت له ، أو حتى اسمه ، فلم يستطع . وعندئذ عرف أنه فقد ذاكرته ، وفقد أهله ، وفقد ماضيه ، كأنه ولد من جديد . وسار فى الطرقات على غير هدى بلا هدف يحاول البحث عن أهله دون جدوى . وشعر فى أثناء سيره بشارع الأزهر بثقل شديد فى رأسه فقد على أثره الحس . وأفاق من غيبوبته ليجد نفسه فى مستشفى الدمرداش وحوله جمع من الأطباء ، قالوا إنه تناول

مخدراً قوياً أفقده الذاكرة ، فأجرى له غسيل فى المعدة ولم يعثر على أى أثر لمخدر . ثم جاءه ذات صباح ضابط وبعض رجال البوليس وأخذوه من المستشفى إلى قسم الدرب الأحمر حيث حجز خمس ليال ، ثم أخلى سبيله .

وأغمى عليه مرة ثانية ، ولكنه أفاق ليجد نفسه فاقد النطق أيضاً ، وأصبح كالحيوان الأعجم لا يخاطب الناس إلا بالإشارة ، وعندئذ سعى إلى الانتحار بسكين ، بعد أن فقد وعيه ، وعثر عليه أحد رجال البوليس ، ونقل إلى مستشفى الدمرداش ، حيث صوروا المخ بالأشعة فلم يظهر بها أى أثر لاختلال غير طبيعى .

وطلب ورقاً وقلماً ، وكتب ما يأتى : « حياة فارغة . . . عديمة اللون . . . عديمة الطعم . . . لا أهل ولا أصدقاء . . . حتى اسمى الذى حملته ما يزيد عن تسعة عشر عاماً فقدته فى ثوان . . . » .

وطلب الشاب أن تنشر صورته لعل أهله يتعرفون عليه .

ولم أتتبع هذه الحالة لبحثها ومعرفة العلة فى هذا المرض النفسانى . وإنما أحببت أن أبين كيف يقع بعض الناس فريسة فقدان الذاكرة فقداناً تاماً ، وليس هذا من الغريب .

وقد قسم العلماء أمراض فقدان الذاكرة قسمين ، الأول عضوى Organogènes والثانى نفسانى Psychogènes فالقسم الأول وهو العضوى يرجع إلى إصابة المخ لأى سبب

من الأسباب من عدوى أو سموم أو أورام ، ولذلك يجب أن يتجه الطبيب إلى بحث المخ لمعرفة السبب ، فلو أن فقدان الذاكرة يرجع إلى إصابة المريض بمرض الزهرى ، أو بورم فى المخ ، فإن علاج الزهرى أو استئصال الورم يؤدى إلى شفاء المريض واستعادته ذاكرته . ولا نزاع فى وجود علاقة بين المخ والذاكرة ، بدليل أن الشخص إذا وقع على رأسه أو ضرب ضرباً قوياً على رأسه فإنه يفقد الذاكرة فقداناً « مؤقتاً » ، نعنى لفترة بسيطة من الزمن قد تكون ساعة أو يوماً أو شهراً ، وقد تمتد إلى الماضى كله كما حدث فى حالة صاحبنا الذى ذكرناه فى أول هذا الفصل ، وقد تمحى صفحة واحدة من الماضى أو عدة صفحات . وهذه كلها أمراض نفسانية لا يكفى فى تفسيرها إصابة المخ . وكان العلماء فى القرن التاسع عشر قد اصطنعوا النظرية المادية فى تفسير النسيان ، واعتنق « ريبو » بوجه خاص مذهب انطباع الصور فى المخ ، وذهب إلى أن إصابة أى مركز من المراكز فى المخ هو الذى يؤدى إلى النسيان . ولكن هذه النظرية لم تقف طويلا أمام النقد القائم على المشاهدات ، لأن الذكريات لا تمحى ، بل تختفى فقط ، ثم تعود إلى الظهور . ومن أجل ذلك درس بعض العلماء القوانين النفسانية التى يخضع النسيان لها ، وصاغ فى ذلك جاكسون Jackson

قانوناً يعرف باسم قانون « الانحلال » Dissolution تتراجع فيه الذكريات من التعقيد إلى البساطة، ومن الإرادة إلى الآلية. وإذا طبقنا هذا القانون على الحالة المذكورة سابقاً رأيناه مستقيما ، فقد نسى الشاب كل شيء ما عدا الأعمال الآلية ، كالمشى والأكل واللبس ، والكتابة .

وللعلماء تقسيمات كثيرة لأنواع فقدان الذاكرة . فهذا « ريبو » يقسمها قسمين كبيرين أمراض عامة وأمراض جزئية للذاكرة ، أما الأمراض العامة فيقسمها بدورها ثلاثة أقسام ، مؤقتة ، ودورية ، ومتقدمة ، ووراثية . والأمراض الجزئية هى تلك التى تتناول نواحى خاصة ، مثل نسيان الأسماء أو الأشكال وما إلى ذلك . ونحن ننقل عن كتابه « أمراض الذاكرة » بعض الأمثلة .

وينشأ فقدان الذاكرة المؤقت غالباً فجأة وينتهى كذلك بطريقة غير منتظرة وقد يستغرق هذا الفقدان دقائق ، وقد يمتد سنوات . فهذا مريض يذهب لاستشارة طبيب ويصاب فجأة بنوبة صرع ، حتى إذا أفاق منها نسى أنه دفع للطبيب أجره قبل دقائق .

وذهب موظف إلى مكتبه وهو يحس باختلاط فى ذهنه ، ويتذكر أنه كان قد طلب طعاماً من أحد المطاعم ، ونسى

كل شيء بعد ذلك . فعاد إلى المطعم ، وهناك علم أنه طلب الطعام وتناوله ودفع ثمنه وأنه خرج متوجهاً إلى مكتبه ، واستمرت هذه الفترة من النسيان ثلاثة أرباع الساعة .

وأصيب شخص بنوبة صرع فى دكان وسقط مغشياً عليه ، ثم أفاق ونهض وجرى من الدكان تاركاً قبعته وبطاقته . ووجد نفسه على بعد نصف كيلو متر من ذلك المكان فبحث عن قبعته فى جميع الدكاكين ، ولم يكن يدرى ما يفعل ، ولم يعد إلى تمام وعيه إلا بعد عشر دقائق .

ويروى عن أحد العلماء أنه اجتمع فى مؤتمر فى فندق باريس ، فخرج عارى الرأس وذهب إلى شاطئ السين ثم عاد إلى مكانه من المؤتمر يشترك فى مناقشاته دون أن يذكر شيئاً مما فعل .

وتزوجت سيدة من رجل تحبه حباً شديداً ثم أصيبت بنوبة إغماء استيقظت بعدها لتنسى كل شيء عن حياتها من بدء زواجها ، ولكنها تذكر ما قبل ذلك . وإذا تقدم زوجها وابنها دفعتهم بعيداً عنها . وجاء أهلها وأخذوا يقنعونها أنها متزوجة وذات ولد ، فكانت تؤمن على كلامهم وتتهم ذاكرتها حتى لا تتهمهم جميعاً بالادعاء والكذب ، ولكنها ترى زوجها وابنها فتعجب كيف تزوجت هذا الرجل وكيف

أنجبت هذا الغلام .

وهذه سيدة أخرى فى الرابعة والعشرين من عمرها أصيبت بحالة تدفعها إلى النوم حتى أصبح من العسير تغذيتها فكانوا يضعون ملعقة فى فمها تبلع منها الطعام . وبعد شهرين شفيت من ذلك المرض ، واستيقظت لتجد نفسها قد نسيت كل شيء ، وأنها فقدت ذاكرتها ، وغاب عنها كل ما تعلمته ، وأصبح كل شيء تراه جديداً بالنسبة إليها ، فهى لا تعرف أحداً حتى أقرباءها الأقربين . ولكنها كانت مرحة شديدة الحركة تبدو كأنها طفلة . وفى أول الأمر كان من المستحيل أن يتحادث المرء وإياها ، فإذا سمعت سؤالا رددته فى صوت مرتفع . ولم يبق فى قاموسها إلا بضع كلمات ، ثم أخذت تكتسب بسرعة كلمات أخرى ، ولكنها كانت تخلط بين الألفاظ ، بدلا من أبيض تقول أسود ، وإذا وصفت الحار قالت إنه بارد ، وهذا ذراعى بدلا من فخذى ، وهذه سنى بدلا من عينى ، وغير ذلك ، وظلت على هذه الحال مدة طويلة . وبقيت فترة طويلة لا تذكر أهلها ، ولو أنها كانت تعرفهم بأسمائهم التى علموهم إياها . وتعلمت القراءة من جديد ، واضطرت إلى تعلم الألف باء لأنها لم تذكر حتى الحروف ، ثم تعلمت المقاطع والكلمات وأصبحت تقرأ فى سهولة .

وهذا شخص آخر فى الثلاثين من عمره فقد ذاكرته عقب مرض شديد وأصبح لا يعرف حتى أسماء الأشياء المألوفة . فلما استعاد صحته بدأ يتعلم من جديد كأنه طفل ، فتعلم أسماء الأشياء ، ثم القراءة ، ثم أخذ يتعلم اللغة اللاتينية ، وكان يتقدم فى تعلمه بسرعة . وكان أخوه هو الذى يقوم بتعليمه ، فتوقف ذات يوم فجأة ، ووضع يده على جبهته ، وقال : إنى أحس فى رأسى إحساساً غريباً ، إذ يخيل إلى الآن أن كل ذلك قد علمته من قبل . واستعاد بعد ذلك ذاكرته .

وإليك قصة سيدة نصف كانت فى صحة جيدة ثم سقطت فى حادثة فى النهر وكادت أن تغرق ، وظلت ست ساعات بدون وعى ثم عادت إلى نفسها . وبعد عشرة أيام أصيبت بإغماء تام استمر أربع ساعات ، فلما فتحت عينيها لم تعد تعرف أحداً ، حتى لقد ذهب سمعها وفقدت النطق ، والذوق والشم ، ولم يبق لها من الحواس إلا البصر واللمس الذى كان شديد الحساسية . وأصبحت بذلك جاهلة بكل شىء ، عاجزة عن التحرك بنفسها ، حتى أضحت كالحيوان الذى انتزع مخه . وكانت ذات شهية جيدة للأكل ، إلا أنه كان من الواجب إطعامها ، وكانت تبلع الطعام بطريقة آلية . جملة القول ارتدت السيدة إلى آلية خالصة . ولم تكن تعمل

شيئاً إلا أن تقطع ما يقع تحت يدها ، كالورق ، أو الزهر ، أو الملابس ، قطعاً صغيرة . وبعد فترة من التعليم أصبحت تشتغل بالإبرة من الصباح إلى المساء ، ولم تكن تميز بين الأيام . ولكنها كالأطفال أخذت تكتسب بعض الخبرات ، وأخذت تتعلم نسج السجاد .

وكان هناك موضوعان يؤثران عليها أشد التأثير ، سقوطها فى النهر ، وقصة غرام قديم . فإذا رأت صورة نهر أو بحر تهيجت هياجاً عظيماً يعقبه صرع وإغماء . وكان صوت الماء يثير فيها خوفاً يجعلها ترتعش ، فإذا غسلت يديها وضعتهما فى الماء وضعاً دون تحريكهما . ومنذ ابتداء مرضها كانت زيارة رجل معين لها تبعث فيها سروراً ظاهراً على حين أنها كانت لا تحفل بغيره . وكان يزورها بانتظام كل مساء ، كما كانت تنتظر كذلك حضوره . ومع أنها لم تكن تذكر شيئاً مما تفعل ، فإنها كانت تترقب بشغف أن يفتح الباب فى الساعة المعلومة ، وإذا لم يحضر صاحبها ظلت واجمة طول الليل . جملة القول إن وجود هذا الرجل إلى جانبها كان يزيد فى تحسن حالتها الطبيعية والنفسية . وأخذت تستعيد ذاكرتها شيئاً فشيئاً ، غير أن الطريقة التى شفيت بها تماماً تعد عجيبة حقاً ، إذ أنها علمت أن حبيبها يغازل امرأة أخرى ، فثارت فيها

عاطفة « الغيرة » ، وأحدثت هذه الغيرة ذات يوم حالة تكاد تشبه حالتها الأولى ، حتى إذا أفاقت من إغمائها إذا بها تسترجع ذاكرتها التى فقدتها مدة عام كامل ، وعرفت جدها وجدتها وأصدقاءها القدماء . ولكنها بعد أن استعادت ذاكرتها الماضية ، نسيت كل شىء عن الفترة التى قضتها خلال المرض حتى ذلك الوقت .

ولا نود أن نطيل فى ذكر القصص التى دونها العلماء عن فقدان الذاكرة ، وفى كتاب « ريبو » الشىء الكثير ، وفيه تتمة الأنواع التى قسم أمراض الذاكرة إليها .

ولكن هذه القسمة أصبحت قديمة ، وأصبحت لا تفسر ظاهرة النسيان المرضية تفسيراً كافياً . ونحن نميل إلى الأخذ بتقسيم الأستاذ جان ديلاى الذى يجعل الذاكرة ثلاثة أنواع ، آلية [حسية حركية] واجتماعية ، ووهمية.

ومعظم هذه القصص التى سقناها عن فقدان الذاكرة ترجع إلى اختلال الذاكرة الاجتماعية ، وتمثل ابتعاد المريض عن المجتمع وسخطه عليه وهربه منه وذلك بنسيان الأحداث التى وقعت له فى هذا المجتمع . وليس الصرع ، أو الإغماء ، أو النوم ، وما إلى ذلك إلا جنوحاً من الشخص إلى الابتعاد عن المجتمع ، وهى دليل على أنه لا يريد أن يفتح عينيه عليه .

والنسيان أحد هذه الصور المرضية ، فهو « غيبة » عن المجتمع ، وصدوف عنه ، وكثيراً ما يختلط النسيان ، أو فقدان الذاكرة ، بأمراض نفسية أخرى كالصرع أو العته dementia . ولكن هذه الذاكرة الاجتماعية حين تفقد ، فإن الذاكرة الآلية تظل باقية ، وكذلك تظل الذاكرة الوهمية ، وما يصحبها من هذيان وخرافة وخيالات .

وقد اختلف العلماء بشأن سبب النسيان ، ولهم فى ذلك نظريات أربعة ، الأولى كيمائية ، والثانية عصبية ، والثالثة مخية ، والرابعة وظيفية . وجميع هذه النظريات من قبيل الفروض التى لم تستطع التجارب تأييدها . ويبدو أن لكل منها جانباً من الصواب .

ويزعم أصحاب النظرية الكيمائية أن كل عمل نفسانى يتم على حساب مادة غذائية تنحل كيمائياً وتتغير باستمرار ، ويعرف العلماء هذا التغير باسم catalytic ، ومن شأنه زيادة التأثير بسبب الفعل . ومثال ذلك الأكسجين الذى نستنشقه مع الهواء ، فإنه يساعد على التذكر ، وقلته تؤدى إلى النسيان . وحاول بعضهم تفسير النسيان بتغير كثافة المادة الهلامية colloid .

أما أصحاب النظرية العصبية فيذهبون إلى أن الذاكرة متصلة

اتصالا وثيقاً بالجهاز العصبي ، وما يحدث فيه من تغيير الخلايا العصبية . وأن اكتساب ذكرى جديدة يؤدي إلى زيادة خلوية [أي نسبة إلى الخلية] من جهة الحجم ، كما تعبد الطرق بين الخلايا حين يمر التيار العصبي . ونحن نعلم أن الخلية العصبية تتكون من نواة ومن زوائد شجيرية وزوائد محورية ، وتتداخل الخلايا دون أن تتلاحم ، بحيث تتداخل الزوائد الشجيرية من الخلية في فروع الزائدة المحورية من الخلية التي تليها . وتسمى نقطة هذا التدخل « بالوصلة » ، ويتم العبور بين الخلايا العصبية بانتقال التيار العصبي عابراً هذه الوصل ، ويؤدي تكرار انتقال التيار العصبي إلى تكوين العادات أو إلى الذاكرة الآلية . ويؤدي التخدير أو التعب أو السموم إلى مقاومة هذه الوصل وتباعد الخلايا العصبية .

وإذا كانت الذاكرة تابعة لقيام الأعصاب بوجه عام بوظيفتها فإنها أول كل شيء متعلقة بالمخ . والمشاهدة الساذجة تؤيد ذلك ، لأن ضربة العصا على الرأس تفضي إلى الغيبوبة وإلى فقدان الذاكرة . وهناك كما نعرف مناطق للحس والحركة والتفكير والكلام في المخ . فالصلة وثيقة بين المخ وبين الظواهر النفسية المختلفة . .

وزعم كثير من علماء النفس حتى أواخر القرن الماضي

أن المخ أشبه بالشمع الذي تنطبع عليه الآثار النفسانية ، فهو مثل « الجراموفون » ، وأن الذكريات تنطبع أو تحفر فى المخ . ولكن هذه النظرية لا تجد لها سنداً الآن .

وحاول بعض العلماء أن يعد الخلايا العصبية الموجودة فى المخ ، وقدرها أحدهم بأربعة عشر مليار من الخلايا ، وأن كل صورة ذهنية تسجل فى خلية من هذه الخلايا . فلو فرضنا أن رجلا عاش حتى الثمانين فمجموع ما قطعه من الثوانى هو ملياران ونصف ، ولا يمكن أن تبلغ ذكرياته هذا العدد ، لأن قاموس أى شخص من الألفاظ لا يزيد عن ٢٠,٠٠٠ لفظة .

غير أن هذه النظرية أيضاً لم تثبت طويلا أمام النقد ، وبخاصة نقد برجسون ، ذلك أن الصورة الذهنية التى تؤلف الذكرى ليست واحدة ، فأنت تعرف « محمداً » مثلا بعد أن رأيته آلاف المرات وهو فى كل مرة يختلف عن سابقتها ، ومع ذلك فهو شخص واحد . وهناك طائفة كثيرة من أنواع النسيان ترجع إلى فساد الحفظ والاكتساب ، فالذكريات لا تنسى لأنها فسدت فى المخ بل لفساد حفظها ، ومن أجل ذلك كانت الأحداث سريعة النسيان بالإضافة إلى الشيوخ على حين أنهم يحتفظون بالأحداث الماضية . يضاف إلى ذلك

أن النسيان يسير طبقاً لقانون معين يسمى قانون التراجع regression إذ تنسى أولا الأسماء ، ثم المعانى الكلية ، ثم الصفات ، ثم الأفعال ، مما يدل على أن النسيان راجع إلى أسباب نفسانية أكثر منها فسيولوجية .

من أجل ذلك رأى العلماء أن النسيان « وظيفة » حيوية مستقلة للحياة النفسانية ، ووظيفة الذاكرة هى وحدة الحياة النفسانية . وإذا انحلت الذاكرة أدت إلى ألوان من النسيان وإلى أمراض الذاكرة مما بسطناه من قبل .

قواعد لتدريب الذاكرة

يحتاج كل إنسان إلى الاعتماد على ذاكرته وإلى تحسينها وتقويتها وإلى إبعاد شبح النسيان . منا من يشكو نسيان الأسماء والوجوه . ويطمع الطالب أن يحفظ دروسه ولا ينساها عند أداء الامتحان. ويرجو الخطيب ألا تخونه ذاكرته وهو يخطب الجماهير فلا يلجأ إلى القراءة من الورق. وأشد الناس حاجة إلى الذاكرة هم رجال الأعمال كالتجار والموظفين فى المؤسسات التجارية لصلتهم بالجمهور ، ولأن نسيان الموظف أورجل الأعمال شيئاً يؤدى إلى خسارة المال . ولذلك ألف كثيرون كتباً فى تحسين الذاكرة لقيت رواجاً كبيراً ، ولجأت المؤسسات الأمريكية إلى هؤلاء العلماء النفسانيين فى علاج الموظفين عندهم من آفة النسيان .

وإنا ملخصون هذه القواعد التى تقوم على مبادئ نفسانية فيما يلى :

١ — اعقد النية على الحفظ :

لنفرض أن أحداً قدم إليك شخصاً اسمه « مصطفى عبد العال » فإنك قد تقول محيياً إياه « تشرفنا » أو « أهلا وسهلا » دون أن تعنى بالتقاط اسم مصطفى عبد العال ، لأنك

قد تقول فى بالك ، ولو بغير شعور ، وماذا يهمنى من تذكر اسمه ؟ فلا أهمية لى أن أتذكر ، ولن أقابله مرة أخرى . فإذا قابلته فى مناسبة أخرى فلن تتذكر اسمه ، لأن نيتك انصرفت من أول الأمر عن تذكره . فإذا نسيته فليس معنى ذلك ضعف ذاكرتك بل عدم محاولتك « الحفظ » . ولذلك كانت الأمور التى تسمعها أو تقرؤها أو تراها عرضاً أدعى إلى النسيان .

٢ – انتبه إلى ما تحفظ :

إذا عقدت النية على تذكر مصطفى عبد العال ، فسوف « تنتبه » إلى اسمه ، وتحسن التقاطه وسماعه ، كما تتأمل شكله وملامحه وحركاته . وكثيراً ما ينسى التلاميذ ما يلقيه عليهم المحاضر أو المدرس لأن عقلهم فى شىء آخر ، أو بمعنى آخر غير منتبهين . ولذلك لا يفهمون الدرس، مع أن « الفهم » أساس الحفظ ، وينسى الطالب لأنه لم يفهم المادة التى يسمعها أو يقرؤها . والانتباه هو السبيل إلى الفهم ، ثم إلى الحفظ ، ثم إلى التذكر أو عدم النسيان .

٣ – استعمل الصور الذهنية ما أمكنك :

إذا أردت أن تتذكر مصطفى عبد العال ، فاستحضر صورته فى ذهنك . الحظ شكله ولونه ، ولون عينيه وملابسه وهكذا ، والحظ كذلك حديثه ولهجته ، وانتبه إلى « لوازمه »

فكل شخص له لوازم تخصه ولا توجد عند غيره ، وكل شيء كذلك يمتاز بلوازم تخصه وتفرقه من غيره . والحظ كذلك غرائب الأشياء والأشخاص ، فكلما كانت الصورة غريبة، بل مضحكة ، كانت أدعى إلى التذكر .

٤ ـ اربط ما تحفظ بغيره من معلوماتك السابقة :

هذه القاعدة هي فى الواقع أهم قواعد الحفظ ، لأن الترابط أساس التذكر . والترابط قد يكون ظاهرياً وقد يكون جوهرياً . فالترابط الظاهرى ما قام على تشابه وثيق أو على مجرد التلازم والتتابع . أما الترابط الجوهرى فهو الذى يستند إلى علة معقولة مثل رابطة السبب بالمسبب والجزء بالكل وهكذا .

تريد أن تتذكر مصطفى عبد العال ولا تنساه ، فاربطه بصديقك الذى عرفك به ، وبالمكان الذى التقيتم فيه ، وبالمناسبة التى وجدت ، وبعمله ووظيفته وما إلى ذلك .

والذاكرة الجيدة التى لا تنسى عبارة عن شبكة منظمة ، حسنة الارتباط بين الأجزاء ، واضحة الروابط ، بحيث يسهل الوصول إلى أى جزء منها . وفى ذلك يقول وليم جيمس:

كلما ارتبطت الحقائق فى الذهن بعضها ببعضها الآخر استطاع العقل أن يسيطر عليها وأن يذكرها . وتصبح كل حقيقة من الحقائق التى نربط بها الحقائق الجديدة «كالخطاف»

الذى تتعلق به ، أو كالسنارة التى نصيد بها السمك حين يغوص فى الماء ويذهب إلى القاع ويبتعد عن السطح. وتكوّن هذه الحقائق مجتمعة شبكة تلتحم فى نسيج الفكر . ويرجع السر فى الذاكرة الجيدة إلى تكوين روابط متعددة مختلفة بين الحقائق التى نحتفظ بها . وليست الروابط التى ترتبط بالحقيقة السابقة شيئاً آخر سوى التفكير فيها وتقليبها على وجوهها .

٥ — احفظ بالنغم أو الإيقاع :

وهذه هى طريقة تحفيظ الصغار ، ولماذا لا يلجأ إليها الكبار ؟ وكان القدماء ينظمون العلوم المختلفة فى أراجيز منظومة ليسهل حفظها ، مثل ألفية ابن مالك فى النحو ، مما لا يزال يحفظ فى الأزهر حتى الآن .

٦ — وزع ما تحفظ على عدة أيام .

من أهم الأسباب التى تجعل كثيراً من الطلبة فى مصر يعجزون عن تذكر معلوماتهم عند الامتحان آخر العام أنهم يظلون طول السنة الدراسية يلعبون منصرفين عن الاستذكار ، ثم يكبون آخر السنة طول الليل يستذكرون ، ويكررون قراءة العلوم المختلفة. وفى بعض الأحيان لا يقرأ أحدهم العلم إلا ليلة الامتحان ، أو صباحه . وقد بينا أن التكرار الموزع على أيام أفضل من التكرار المتلاحق ، وقد ثبت هذا بالتجربة ، حتى

يأخذ الذهن فرصة للراحة ، وحتى ترتبط المعلومات الجديد بالمعلومات القديمة المستقرة فى اللاشعور .

٧ ـ اجتهد أن « تُسَمِّع » ما تحفظ :

المقصود بالتسميع أن تكرر إلقاء ما تحفظ ، فتسمع نفسك ، أو يسمعك غيرك . وكانت هذه هي الطريقة فى تحفيظ القرآن ، إذ « يسمع » الطفل السورة على الشيخ ليعرف هل حفظها أو لا . وفائدة التسميع أنك تكرر ما تحفظ مره تضاف إلى المرات السابقة ، والتكرار أساس الحفظ . كما أنك تثق بنفسك ، وتعرف إلى أى حد بلغت .

وإذا أردت أن تذكر اسم « عبد العال مصطفى » ، فانطق به ، واجتهد أن تقول : « أهلا وسهلا مصطفى عبد العال » بدلا من الاقتصار على رد التحية مجردة . وقل له فى نهاية المقابلة : « مع السلامة يا مصطفى عبد العال » . فهذا أدعى إلى ذكر اسمه وعدم نسيانه .

٨ ـ نم أو على الأقل استرح بعد الحفظ .

إذا عرف الطلاب هذه القاعدة لتجنبوا السهر ليلة الامتحان فى حفظ المادة التى سيمتحنون فيها باكراً . فيأتى أحدهم فى الصباح ، مجهداً متعباً ، فيعجز عن الإجابة ، ويعجب كيف نسى ما حفظ .

٩ ــ احفظ بالطريقة الكلية مجملا لا تفصيلا .

إذا كنت تدرس كتاباً وتحفظ ما جاء فيه ، فاقرأ الكتاب له دفعة واحدة ، واقرأ الفصل جملة لا على عدة أجزاء ، ذا كان للكتاب ملخص فاقرأ الملخص قبل قراءة الكتاب ، ن الطريقة الكلية أدعى الحفظ من الطريقة الجزئية .

* * *

هذه بعض قواعد للحفظ وتقوية الذاكرة ، إذا اتبعها طلاب بوجه خاص لم يجدوا عسراً فى استيعاب ما يدرسون ، لم يشكوا من آفة النسيان .

وكلنا طلابُ حقيقة فى هذه الحياة .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد